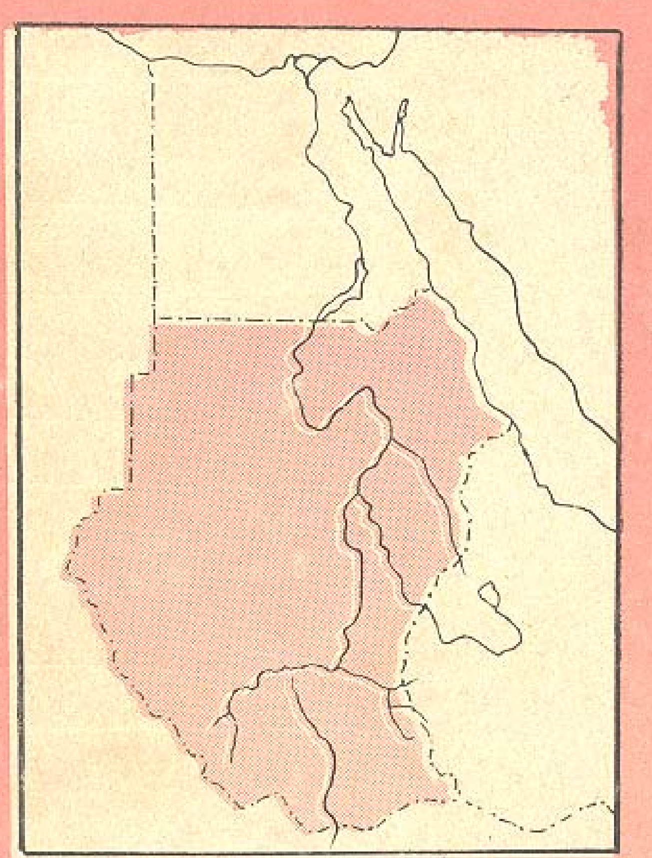


رحلة





محمد علي باشا

إلى السودان

١٥ اكتوبر ١٨٣٨ ـ ١٤ مارس ١٨٣٩

(التقرير الرسمى)

تحقيق وتقديم

حسن احمد ابراهيم

رحلة محمد على باشا

إلى السودان

١٥ اكتوبر ١٨٣٨ ـ ١٤ مارس ١٨٣٩
(التقرير الرسمى)

تحقيق وتقديم
حسن احمد ابراهيم

استاذ التاريخ ـ كلية الاداب ، جامعة الخرطوم
ومدير كلية السودان الجامعية للبنات

١٩٩١

الاهـــــداء

الى استاذى فقيد العلم والوطن
البروفسير مكى الطيب شبيكه

المحتويات

الطبعة الاولى ١٩٨٠ م
الطبعة الثانية ١٩٩١م

الطابعون : مطبعة جامعة الخرطوم
دارجامعة الخرطوم للنشر

تصـــدير

هذا بحث عن الرحلة التى قام بها والى مصر محمد على باشا إلى السودان خلال الفترة من ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ إلى ١٤ مارس ١٨٣٩ . وقد إعتمدت فيه إعتماداً رئيسياً عــلى مصدر نادر هو التقرير الرسمى الذى صدر عن هذه الرحلة عقب عودة الباشا إلى القاهرة مباشرة . ومصدر هام آخر لهذه الدراسة هو الروايات الشفوية والمعلومات الأخرى التى حصلت عليها خلال الرحلة الميدانية التى قمت بها خلال شهر ابريل سنة ١٩٨٠ من الخرطوم حتى فازوغلى وقيسان على الحدود الحبشية ـ السودانية متتبعاً بقدر الإمكان مسار رحلة محمد على .

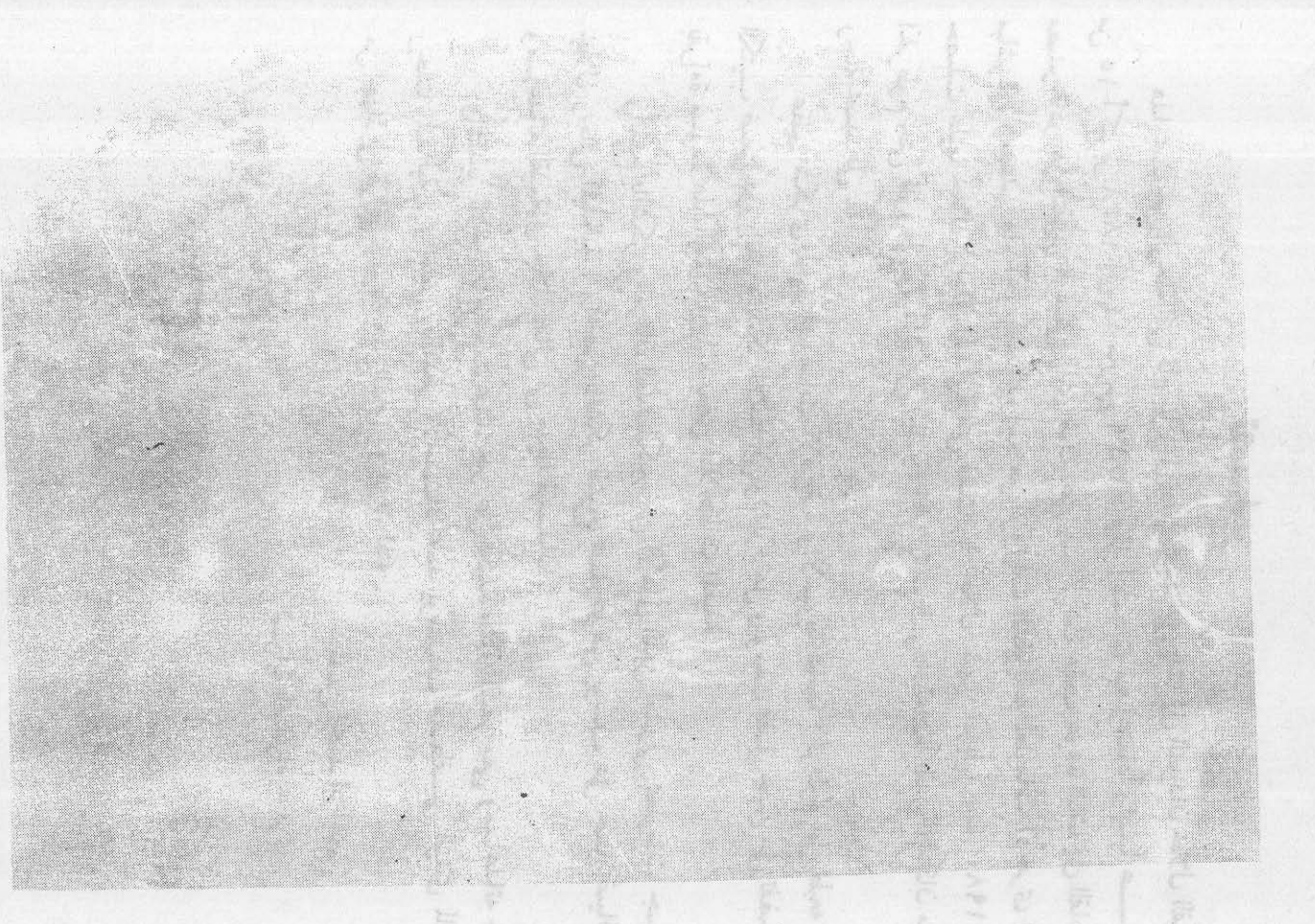
عظيم شكرى لمعهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم على طبعه لهذا الكتيب ضمن دورياته . والشكر للاستاذين رتشارد هل ويوسف فضل حسن على تفضلهما بقراءة مسودة هذا البحث وإبداء بعض الملاحظات المفيدة .

وأتقدم بالشكر والعرفان للعدد الكبير من الأهالى الذين أمدونى بمعلومات جـيدة خلال رحلتى الميدانية . وأخص بالشكر الشيخ محمد عوض يوسف على حسن ضيافته ومساعداته القيمة لى خلال بقائى فى مدينة قيســان .

والتقدير للاخ الحاج حمد محمد خير على تكبده مشاق السفر معى ومساعداته خلال رحلتنا الميدانية . وأخص بالشكر الأستــاذ محمد يوســف مصطفــى الواثق لما بذله من جهد فى قراءة مسودة هذ البحث وتجويد لغته .

حسن احمد ابراهيم

السراية الصفراء ـ برى



جبل فازوغلى مصوراً من قمة جبل فامكة

مقدمــة

تقرير رحلة محمد عــلى :

لم أعثر خلال زياراتى المتعدده لدار الوثائق التاريخية والقومية المصرية منذ أن كانت بقصر عابدين وبعد نقلها خلال عام ١٩٦٨ – ١٩٦٩ إلى القلعة فى قصر من قصور محمد على على نص التقرير الذى صدر باللغة التركية عن رحلة محمد على للسودان ، ولا عــن الترجمة العربية الرسمية له . ولكننى عثرت فى عام ١٩٧٧ – وبمحض الصدفة فقــط – على الترجمة العربية الرسمية لهذا التقرير فى مركز أبحاث تاريخ مصر المعاصر الذى أنشىء مؤخراً فى القاهرة لجمع كل الوثائق والمصادر الرئيسية الأخرى لتاريخ مصر منذ إعلان بريطانيا المنفرد لإستقلال مصر سنة ١٩٢٢ . ويبدو أنه قد وضع هناك بطريق الخطأ ، وهو محفوظ فى إحدى العلب التى أعطيت إسم علبة السودان . وقد ذكر مترجموه أن نصه التركى يوجد فى دار الوثائق المصرية فى ملــف المتفرقات د وسية بدون تاريــخ فى المحفظة نمــرة ١٢٣ عابدين . وفى الغالب أن هذه المحفظة قــد أعطيت رقماً آخر عندما أعيد ترتيب وتصنيف الوثائق قبيل نقلها من عابدين إلى القلعة . وعليه فمن الصعوبة الحصول على النص التركى هناك . هذا وقد ذكر كل من المؤرخ المصرى محمد فؤاد شكرى والبريطانى رتشارد هل أن النص التركى لهذا التقرير قد صدر ملحقاً بعدد مجلة الوقائع المصرية الصادرة بالأسكندرية فى ٦ صفر ١٢٥٥ ، ٢١ أبريل ١٨٣٩ . (١)

---

(١) وفى الحقيقة أن كلا من شكرى ورتشارد هل قد زعم أن هذا التقرير قد صدر ملحقاً بالعدد رقم ٦١٨ من مجلة الوقائع المصرية . محمد فؤاد شكرى « صفحة من تاريخ السودان الحديث ، رحلة محمد على باشا إلى فازوغلى ١٨٣٨ – ١٨٣٩ ونشر جرنال الرحلة » ، كلية الآداب ، العدد الثامن ، المجلد الثانى ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص ٤٤ . (وسأشير فيما بعد لهذا المقال ب : رحلة محمد على)

Hill R: Egpyt *inthe Sudan* (london 1955) P. 66.

إلا أنه يبدو أنهما قد اخطأ فى رقم هذا العدد إذ أننا نلاحظ من قائمة الأعداد الموجودة من هذه المجلــة فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن أن العدد ٦١٨ قد صدر فى وقت ما خلال الفترة من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٣ وليس ١٨٣٩ كما ذكر هذان المؤرخان . فلقد جاء فى تلك القائمة أن الأعداد الموجودة من هذه المجلة فى تلك المكتبة هى الأعداد من ٢٧٠ إلى ٣٨٧، ومن ٣٨٩ إلى ٥٢٢ والعددان ٦٢٥ و ٦٢٦. وكلها خاصة بالفترة من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٣ . وهى مطبوعة باللغتين التركية والعربية معــاً .

وأضاف هل أن محمد على قد أمر بأرسال خمس عشره نسخة من هذا التقرير لكبار موظفيه بالسودان.(١) . إلا أننى لم أجد هذا العدد أو أى عدد آخر من مجلة الوقائع الخاصة بالفترة من ١٢٥٠ – ١٢٥٥ / ١٨٣٤ – ١٨٣٩ فى دار الكتب بالقاهرة . ولا يوجد هذا العدد أيضاً بمكتبة المتحف البريطانى بلندن . وقد ذكر لى الأستاذ هل فى مقابلة لى معه فى الخرطوم فى ١٠ يناير ١٩٨٠ أنه قد أطلع قبل سنين عديدة على النص التركى لهذا التقرير ، إلا أنه لا يذكر الآن مكانه . ولا أدرى إن كان شكرى قد أطلع عليه أم لا ، وإن كنت أرجح أنه لم يفعل ذلك إذ أنه أعتمد فى مقال له عن رحلة محمد على للسودان على ترجمة فرنسية لهذا التقرير قال أنه وجدها ضمن الوثائق النمساوية بوزارة الخارجية بفينا. وأضاف شكرى أن أحد موظفى القنصلية النمساوية بالأسكندرية – فيشر هوسر Wicher Houser – قد أعد هذه الترجمـــة (٢) .

وقد ذكر شكرى أن كلا من جومارد ومنجن قد نشر ترجمة موجزة بالفرنسية لهذا التقرير (٣) ، كما نشر شكرى نفسه ترجمة عربية له معتمداً على الترجمة الفرنسـيـة السالفة الذكر . وقد الحق شكرى ترجمته هذه بمقاله الذى أشرت اليه آنفاً . ولما لم تكن ترجمة شكرى من النص التركى نفسه ، ولأنهـا ناقصة مبتورة وبها عـدد من الأخطاء سأشير اليها فى تحقيقى للتقرير، فيجب أن نكون حذرين فى الإعتماد عليها فى دراسـة رحلة محمد على للسودان . ورغم أن الإعتماد على المادة المترجمة فى الدراسات العلمية

ويوجد فى مكتبة المتحف البريطانى أيضاً عدد واحد فقط – هو العدد ٦٥٢ الصادر ١٨٧٦ – من سلسلة جديدة من هذه المجلة بدأ إصدارها الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . وأن صدق حسى فقد سمعت من الدكتور أحمد خلا ل إحدى الندوات العلمية التى عقدت بالقاهرة قبل بضع سنين أنه لم يصدر غير هذا العدد من هـــذه السلسلة .

(١) – Hıll;. *Opcit*, P. 66

(٢) – راجع مقال شكرى : رحلة محمد غل ، ص ٢٧–٥٨ .

(٣) – ذكر شكرى أن المرجعين اللذين نشرت فيهما هاتين الترجمتين الموجزتين هما :

Jomard,Mr: *Etudes Geographiques et Historiques sur I Arabic* Suivies de la Relation du Voyage de Mohamed Aly dans le Fazogul (Paris, 1839), PP.251-64.
Mengin, F. : *Historie Sommaire*. Append. IV sur la voyage de Mohamed Aly dans le Fazoglo- Extroit du courrier do l'Egypte No. 618. Supplement en date du 6 mois le sufer de l' Anne 1255 de l'hegire (21 Avril1839), Paris 1839

شكرى : رحلة محمد عل ، ص ٥٨ .

أمر غير مقبول من ناحية مبدئية ، إلا أن الترجمة العربية الرسمية للتقرير التى حصلت عليها فالراجح أنها ترجمة دقيقة وشاملة . وذلك لأنها ترجمت من النص التركى نفسه وقام بذلك مترجم ومراجعون وقعوا أسماءهم فى نهاية الترجمة . وهم من المترجمين المتخصصين الأكفاء الذين أستخدمهم ملك مصر السابق فؤاد الأول (١٩١٨ - ١٩٣٦) لترجمة الوثائق التركية إلى العربية . وقد أكد ذلك فى مناسبات عديدة عدد من قدامى موظفى دار الوثائق المصرية الذين عاصروا حركة الترجمة هذه .

ثم أن الرحلة الميدانية التى قمت بها خلال شهر أبريل ١٩٨٠ من الخرطوم حتى فازوغلى وقيسان على الحدود الحبشية - السودانية متتبعاً بقدر الإمكان مسار رحلة محمد على تشير إلى صحة هذه الترجمة . فقد سافرت من الخرطوم ماراً بمدنى وسنار وسنجة حتى مدينة الدمازين . ومن هناك سلكت الطريق البرى الغربى للنيل الأزرق حتى وصلت إلى قيسان . وعند عودتى للدمازين سافرت إلى الرصيرص متتبعاً هذه المرة الطريق البرى الشرقى للنيل الأزرق حتى جبل فامكة الحالى . وهو أحد سلسلة جبال فازوغلى . وتقابله من الناحية الغربية للنيل الأزرق قرية صغيرة تسمى فازوغلى . ويمكن عبور النيل الأزرق بالمراكب من هناك إلى قرية فازوغلى فى فترة وجيزة لا تتعدى العشرين دقيقة . وكما سأوضح فى أماكن متفرقة من تحقيقى لهذا التقرير ، فأن الغالبية العظمى من المدن والقرى والجبال والحيوانات والطيور التى وردت فى هذا التقرير لا تزال موجودة حتى الآن . ومعظمها أشير اليه فى هذا التقرير بطريقة صحيحة وإن حرفت القلة الباقية منها تحريفاً بسيطاً لعل مصدره النص التركى نفسه. ومن خلال حديثى مع عدد من سكان المناطق بين ضفتى النيل الأزرق من الرصيرص حتى قيسان لاحظت أنهم ما زالوا يحتفظون ببعض العادات والتقاليد التى وردت فى هذا التقرير. ثم أن المعلومات التى وردت فيه عن خصوبة أراضى تلك المناطق وسبل كسب أهلها لعيشهم - خاصة إعتمادهم على التنقيب عن الذهب بطرق بدائية - صحيحة حتى يومنا هذا .

ولكل هذا فان الترجمة العربية الرسمية لتقرير رحلة محمد على تعتبر مصدراً هاماً لدراسة هذه الرحلة خاصة وعهد محمد على فى السودان عامة . ولكن هذا لا يقلل من أهمية النص التركى إن أكتشف .

نبـذة عن التقرير :

يحمل هذا التقرير العنوان التالى : « رحلة ساكن الجنان مولانا الكبير محمد على إلى السودان . مترجمة عن وثيقة تركية محفوظة فى ملف المتفرقات (دوسيه بدون تاريخ من المحفظة نمرة ١٢٣ عابدين — رجب — شوال ١٢٥٤) . ويقع هذا التقرير فى حوالى أثنتين وعشرين صفحة فلوسكاب مسطر بكل واحدة منها ثلاثون سطراً تقريباً . وهو مخطوط بخط واضح غير أنه غير مرقم . وقد وضعت علامات الترقيم عليه تسهيلا لقراءته . ويغلب على أسلوب التقرير أنه إنشائى مصطنع فخم اللفظ ، كما أنه ذو رنة عصرية مخادعة . هذا وأننى لم أغير أسلوب هذا التقرير بل تركت النص على ما كان عليه دون تغيير فى النحو أيضاً . والملاحظ أيضاً أن هذا التقرير قد بين التاريخ الذى غادر فيه الباشا القاهرة فى طريقه للسودان . وهو ٢٦ رجب ١٢٥٤ / ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ . وذكر التقرير أيضاً أن الباشا قد وصل فى طريق عودته من السودان إلى كرسكو فى ٢٠ ذى الحجة ١٢٥٤/٦ مارس ١٨٣٩ ، إلا أنه لم يحدد اليوم الذى وصل فيه القاهرة . وبما أن التقرير قد أشار إلى أن الرحلة من وإلى القاهرة قد أستغرقت خمسة أشهر وأربعة أيام فاننى أميل إلى قبول رأى هل أن الباشا قد وصل إلى القاهرة ١٤ مارس ١٨٣٩ (١) .

مسـار الرحلة :

يحدثنا التقرير أن محمد على قد سلك طريقين فى سفره وعودته . فهو قد أبحر من القاهرة جنوباً ماراً بعدد من القرى والمدن فى صعيد مصر كالمينا وأسوان وكرسكو . وقد إستغل محمد على هذه الفرصة لتفقد وإصلاح إدارته فى صعيد مصر . فقد سار ركبه « بالقرب من شاطىء النيل لتيسير مشاهدة القرى وزراعتها » ، كما أنه أصدر لمرؤسيه هناك عدداً من « التنبيهات » المتعلقة بشئون تلك الأقاليم . وعند دخوله الحدود السودانية مر ركب الباشا بوادى حلفا وعبكه إلى أن وصل إلى أم بكول بالقرب من دنقلا العجوز . ويبدو أن هذه الرحلة قد كانت شاقة وخطرة بسبب « الوحل » والصخور التى واجهتها المراكب خاصة فى مناطق الشلالات المنتشرة فى تلك المنطقة . غير أن التقرير يبالغ جداً فى تصوير وشجاعة وثبات الباشا أمام تلك المصاعب . فبينما أتهم هذا التقرير مرافقى محمد

(1) Hill : *Opcit*, P.68.

على بالجزع وفتور العزائم حتى أنهم أخذوا « يصرخون ويولولون » سعياً للخروج من المراكب عندما كادت أن تغرق عند شلال فاجيار ، زعم التقرير أن الباشا ظل ثابتاً ورافضا لرجاء مرافقيه بمغادرة المركب قائلا لهم بتحدى : « دعونى لتجاربى » .

ونسبة لطول الرحلة النهرية من أم بكول إلى الخرطوم نظراً « لإعوجاج النيل » سلك ركب محمد على الطريق البرى عبر صحراء بيوضة إلى أن وصل إلى الخرطوم فى رحلة أستغرقت ستة أيام ونصف . أما المراكب التى صحبت البعثة فقد واصلت رحلتها من أم بكول عبر النيل إلى الخرطوم فى فترة إستغرقت ثلاثين يوماً . وعند وصول المراكب أبحر الركب من الخرطوم نحو الروصيرص ماراً بمدنى وسنار . وبعد قضاء خمسة عشر يوماً فى الروصيرص ، واصل رحلته عبر النيل حتى فازوغلى .

أما فى طريق العودة فقد أبحر الركب من فازوغلى حتى الخرطوم . وبعد قضاء ثلاثة أيام هناك واصلت البعثة مسيرتها عبر النيل حتى أبى حمد . ونظراً لإنخفاض ماء النيل آنذاك تعرضت المراكب لإخطار داهمة خاصة فى مناطق الشلالات . و كاد أن يغرق المركب الذى حمل قنصل اليونان فى مصر الذى صحب محمد على فى هذه الرحلة . وبعد قضاء أربعة أيام فى أبى حمد لإنتظار الدواب التى أرسلت براً ، إخترق ركب الباشا صحراء العتمور إلى كرسكو . وقد إستغرقت هذه الرحلة الصحراوية الشاقة أسبوعاً كاملا قطعت خلاله تلك «الفيافى الرملية اللانهائية لها» . ومن كرسكو سلكت البعثة طريق النيل حتى القاهرة .

وهكذا فقد سلك محمد على خلال هذه الرحلة طرقاً مختلفة مما مكنه من زيارة جهات متعددة متفرقة فى السودان .

أهداف الرحلة :

زعم المؤرخ المصرى محمد فؤاد شكرى أن السودان كان فى « حالة خلو » عندما زحف الجيش المصرى عليه إذ لم توجد فيه آنذاك دولة تستمتع بكل أسباب السيادة فى أرجائه . ولذلك عندما قضى محمد على على «فلول الهمج» فى سنار وأقام دولة «مرهوبة الجانب » فى السودان، أصبح له الحق فى أن يستمتع بكل حقوق السيادة عليه (١) .

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان (القاهرة ١٩٤٦) ؛ ص ٣٨ - ٣٩ .

وأستطرد شكرى زاعماً أن محمد على قد هدف برحاته إلى السودان « إذاعة نظرية الخلو والإستناد عليها فى صون وحدة وادى النيل أى بقاء شطريه مصر والسودان فى نظام سياسى موحد » (١) .

غير أن السودان لم يكن فى « حالة خلو » كما زعم شكرى . إذ أن ساطان سنار ظل الحاكم الرسمى المتمتع بالسيادة القانونية الكاملة عليه . ثم أن محمد على نفسه كان تابعاً للسلطان العثمانى الذى تم غزو السودان بأسمه . وبهذا فقد أصبح السودان بعد الغزو التركى — المصرى تحت سيادة الإمبراطور العثمانى لا سيادة والى مصر . ويجب أن نذكر هنا أنه عقب سقوط سلطنة الفونج تنازل سلطانها آنذاك — السلطان بادى السادس بن طبل — عن سيادته على مملكته لخليفة المسلمين الإمبراطور العثمانى . إذاً ليس لمصر أى حق قانونى فى السيادة على السودان . ولذلك عندما تنازل الإمبراطور العثمانى عقب الحرب العالمية الأولى عن سيادته على البلاد التى كانت خاضعة له لشعوبها كان طبيعياً أن تؤول السيادة على السودان لشعبه .

ودراسة هذا التقرير توضح أن الهدف الرئيسى لهذه الرحلة كان متمشياً مع إستراتيجية محمد على الرامية لإستغلال موارد السودان . ونلاحظ ذلك من تركيز التقرير وإهتمامه البالغ فى مواضع متعددة بالتنقيب عن الذهب والحديد ، وتطوير زراعة المحاصيل السودانية لتصديرها لمصر .

على أن التنقيب عن الذهب فى جهات فازوغلى كان أهم أهداف هذه الرحلة جميعاً الأمر الذى يتضح من بداية هذا التقرير إذ جاء فيه : « ويتضح من هذا أن معدن الذهب موجود بالفعل فى هذه البلاد . ولهذا اعتزم جنابنا العالى زيارة السودان لما فى هذه السياحة من مبررات حسنة . وقرر الوصول إلى معرفة حقيقة هذا التبر » . ولما كان الباشا يعقد آمالا عريضة على الحصول على الذهب هناك بكميات وفيرة فقد كبد نفسه — وهو آنذاك شيخ مسن فى الواحد والسبعين من عمره — مشاقاً ومصاعب جمة خلال تلك الرحلة الطويلة . ففى جهات فازوغلى وحدها قضى الباشا واحداً وعشرين يوماً إذ أنه وصلها فى ٢٨ شوال ١٢٥٤/١٤ يناير ١٨٣٩ ، وغادرها فى ١٩ ذى القعدة/٣ فبراير . وفى

---

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، ١٨٢٠ - ١٨٩٩ ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٣ .

تلك المنطقة بذل الباشا مجهودات جمة للتنقيب عن الذهب . فقد سار من فازوغلي حتى خور الذهب الواقع فى مواجهة قرية كشنكرو . وأقام هناك « المبانى اللازمة لأشغال المعدن » . ولما كانت لمهمة الذهب « أهميتها وخطرها وتعد من الأمور الجسيمة»، فقد أمر الباشا بأن يكون العمل فيها «بالآلات الميكانيكية وفقاً لتقارير المهندسين وما أدلوا به». وقد ترك هناك عشرين مهندساً تقاضوا « مرتبات كبيرة » ، كما منح كلا منهم « مائة فدان أبعادية من الأرض». ولمساعدة هؤلاء « فى أشغال المعدن » ، حث الباشا شيوخ جبل فازوغلى على إحضار ١٥٠٠ أسرة وإسكانهم «فى مدينة محمد على ، ووعدهم بمكافآتهم بصرف كسوة لكل منهم سنوياً علاوة على المقدار المقرر من الذرة » (تسعة أرباع سنوياً) .

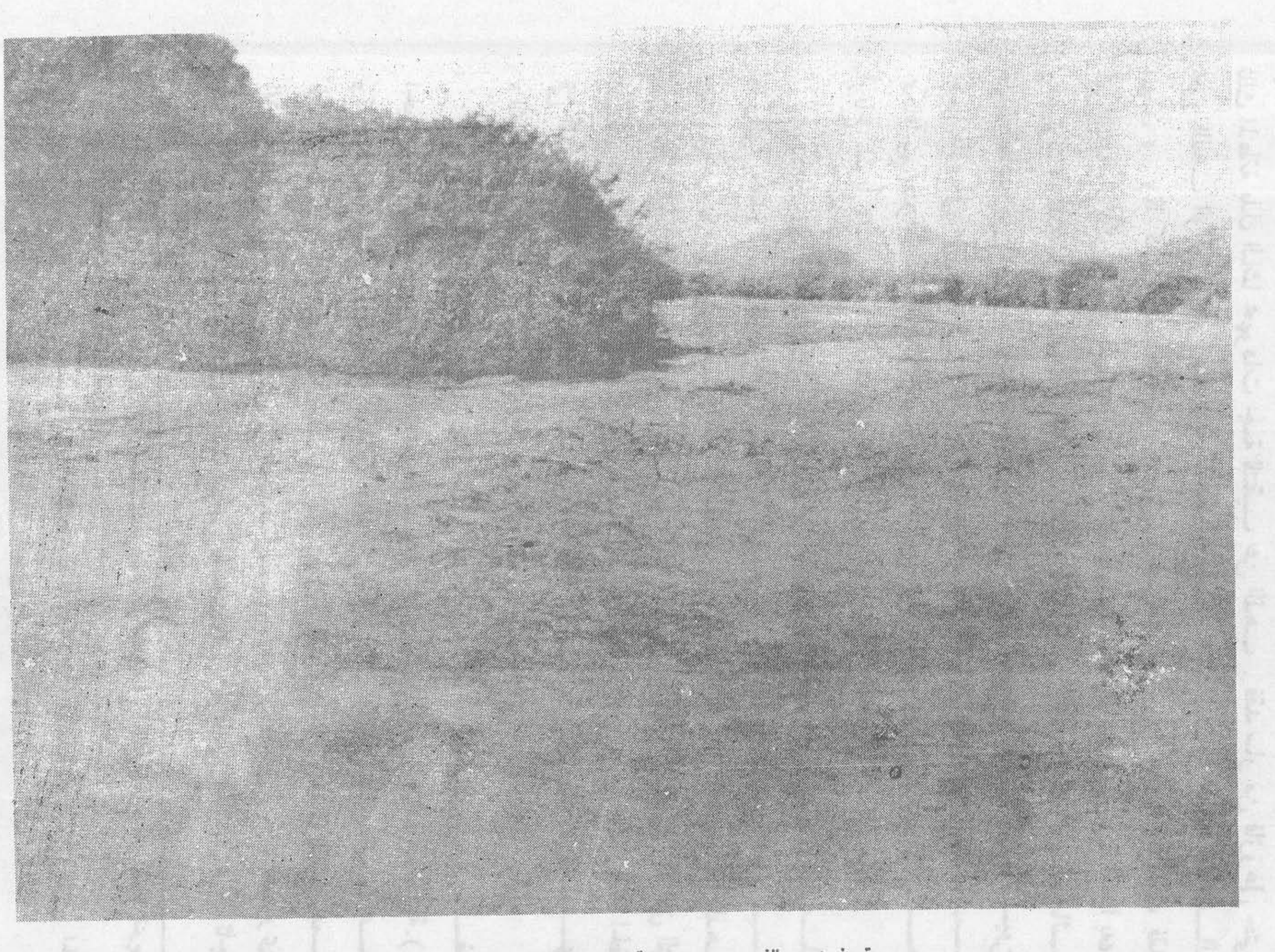
ويجدر بى أن أذكر هنا أن كثيرين من أهالى جهات فازوغلى وقيسان والكرمك ما زالوا يعتقدون حتى يومنا هذا فى توفر الذهب فى مناطقهم . بل أن عدداً منهم قد عمل وآخرون ما زالوا يعملون — خاصة فى فصل الخريف — فى التنقيب عن الذهب هناك بطرق بدائية تشابه تلك التى أتبعت فى عهد محمد على . وهى أن يحفروا المناطق التى يشتبه « خبراؤهم » وجود الذهب فيها . ثم يضعون التراب الذى يخرجونه من هذه الحفر فى أقداح يصبون عليها الماء . وعند الغربلة يخرج التراب ويبقى للمحظوظين منهم « التبرى » الذى يبيعونه للتجار . ويقوم هؤلاء بدورهم ببيعه للصاغة لسبكه .

وعند رحلتى الميدانية إلى تلك المناطق رأيت نموذجاً لعملية التنقيب هذه فى بعض الخيران حول قيسان. وعلمت أنها مستمرة فى مناطق أخرى كجبال أمورا وجبل السعودية.(١) وقد ذكر لى خلال رحلتى الميدانية عدد من أهالى تلك المناطق أنهم مارسوا هذه العملية بأنفسهم : مثلا موسى أحمد خبير من أهالى قرية ود الماحى وسبت الشيخ محمد الأمين من أهالى قرية أبو شندى . وشاهدت بنفسى عدداً من الأهالى يبيع « التبرى » لأحد كبار تجار قيسان — الشيخ محمد عوض يوسف (٢) . وأفادنى هذا الشيخ أن تاجراً

---

(١) أطلق فريق من الجيولوجيين السودانيين إسم « السعودية » على هذا الجبل الكائن بالقرب من قيسان تنويها منهم بأعتقادهم بوجود الذهب هناك .

(٢) وفد الشيخ محمد عوض إلى الحبشة للعمل بالتجارة هناك فى سنة ١٩٤٤ . وبعد قضاء ست سنوات فى الحبشة إستقر فى قيسان التى لا يزال بها إلى يومنا هذا . ويبلغ من العمر ستين عاماً .



مقرن خور الذهب مع خور تمت . ويرى فى الخلف جبل كشنكرو

إغريقياً قد حاول سنة ١٩٥١ – بالتعاون مع تاجر هندى من مدنى – التنقيب عن الذهب فى أبنغرو بين الكرمك وأورى . فحفر هناك حفرة كبيرة صرف عليها أكثر من خمسة آلاف جنيه . إلا أن عائده من الذهب كان خمسة وقيات فقط . وأضاف الشيخ محمد أن تجاراً من الكرمك – سليمان كروم وأخوانه – قد تقدموا الآن بطلب رسمى للحكومة للسماح لهم بالتنقيب عن الذهب فى تلك المنطقة (١) .

ويذكر التقرير أن الباشا قد أبدى أيضاً بعض الإهتمام بالتنقيب عن الحديد فى كردفان ، إذ أنه أرسل من الخرطوم فى طريق عودته لمصر مهندساً فرنسياً – المسيو لامبرت – إلى ذلك الإقليم « ليقرر أن كان من الممكن شق ترعة من النيل إلى كردفان توطئة لتشغيل وإدارة معدن الحديد على الوجه المطلوب »

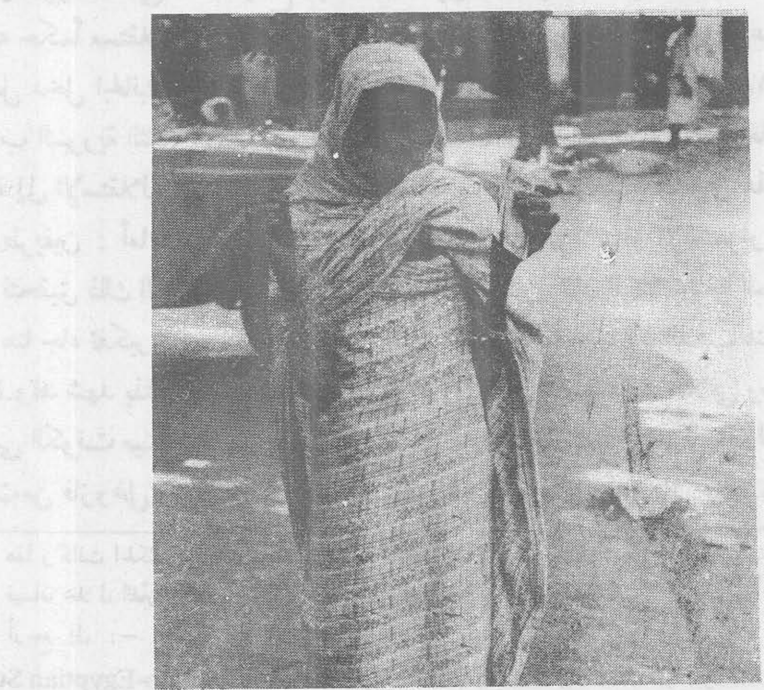
بيد أن توقيت هذه الرحلة كان مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بتطور الصراع بين محمد على والإمبراطور العثمانى . فقد إقتنع الباشا أن تحقيق هدفه بأنهاء تبعيته للامبراطور العثمانى وإقامته حكماً مستقلا فى مصر لن يتم إلا بتحدية والدخول معه فى مواجهة عسكرية . وبالفعل دخل الجانبان فى حربين تعرفان بأسمى الحرب السورية الأولى ١٨٣٠ – ١٨٣٣ والحرب السورية الثانية ١٨٣٨ . ولما إتضح للباشا آنذاك أن الدول الأوربية تعارض خطته الرامية إلى الإستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، رأى أن لا سبيل لتحقيق هذا الهدف إلا بأحد طريقين : أما بأغراء السلطان ورجاله بالهدايا والرشوة ، أو الإستمرار فى حروبه ضده لتحقيق ذلك الاستقلال بالقوة. وفى كلا الحالتين كان الباشا محتاجاً للمال الوفير . ومن هنا جاء تفكيره لزيارة جهات فازوغلى حيث ظن أنه سيجد الذهب هناك بكميات وافرة.وقد شهد بذلك بعض قناصل الدول الأوربية فى مصر فجاء مثلافى رسالة للقنصل الروسى الكونت ميدموم بتاريخ ٦ أغسطس ١٨٣٨ أن محمد على قد قال له : « إذا ما رجعت من فازوغلى بمركب محمل بالذهب فسوف أقضى كل منازعاتى وفق رغائبى دون

---

(١) هذا وكانت الحكومة الثنائية قد سمحت لشركة تطوير السودان بالتنقيب عن الذهب فى منطقة فازوغلى – فيسان خلال الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١١ . وقد أصدرت هذه الشركة تقريراً عن نتائج أعمالها . لنصه أرجع إلى :–

Dunn, stanley: ',Notes on the Mineral Deposits of the Anglo-Egyptian Sudan *The Anglo- Egyptian Sudan Geologicol Survey Bulletin,* I, 1911, PP. 52 - 55. **(Hereafter Dunn: *Notes*)**





الأهالى يبيعون التبرى فى سوق مدينة قيسان (صورتان)

معونة أحد لأنه إذا وجد المال لا يعدم الإنسان الأصدقاء والجيوش التى تسهل الإتفاق(١)».

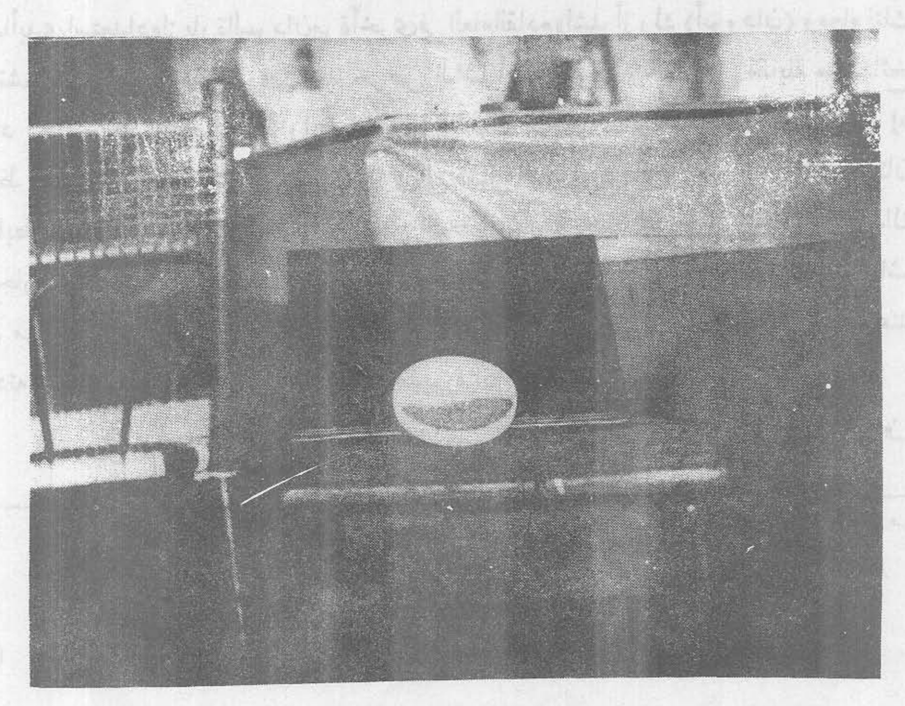
ويعكس هذا التقرير إهتمام محمد على - خاصة فى طريق عودته لمصر بعد أن فشل فى الحصول على الذهب من جهات فازوغلى - بتطوير الزراعة وتسهيل ترحيل المحصولات السودانية إلى مصر. فلما كانت «أراضى السودان أخصب وأوفر محصولا وأكثر سكاناً ووديانا وأشجاراً»، فقد أعتقد الباشا أنه لو بذلت جهوداً فى عمرانها« فلا شك أن قارة إفريقيا بعد مائه سنة تضارع أمريقا (٢) بل تكون ثانيها». ولذلك فقد حث الباشا طوال رحلته مرءوسيه فى السودان على تشجيع «الشعب على تذوق منافع الزراعة وحذق أصولها حتى يقبلوا على زراعة النيلة والقطن وقصب السكر». ووجه بأعفائهم من الضرائب لعدد من السنوات يحددها المسؤلون فى القاهرة وبعدها يؤخذ منهم العشر فقط. وقد وجه الباشا بصفة خاصة الحكمدار أحمد باشا أبوودان على بذل قصارى جهده فى «تطيب قلوب الزراع وحمايتهم على وجه أتم». ووعده بالترقية إذ فعل ذلك بأن خاطبه قائلا: «يا بنى أرنى همتك وإن ظهرت لى أنك قادر على تنفيذ وصاياى المبسوطة بأذن الله فلاشك أن عائلتك ستكون فى المرتبة الأولى بين العائلات المصرية» بل وأن الباشا أبدى إستعداده لزيارة السودان مرة أخرى فى العام القادم «لشد أزرك (أبوودان) ومعاونتك فى تشجيع الرعية وحضهم» وقد حرص الباشا أيضاً طوال رحلته على مقابلة مشائخ البلاد ليشرح لهم «فضائل الزراعة وتفضيل شئون التجارة». وقد أثمر هذا التشجيع إذ لاحظ محمد على فى طريق عودته من فازوعلى «ميل الأهالى إلى الزراعة والفلاحة». وكان الضابط فيسان - من أوائل الضباط الذين التحقوا بخدمة محمد على والذى عمل آنذاك بالتجارة فى الخرطوم - من أبرز من أستجابوا لنداء تطوير الزراعة. فهو قد تعهد للباشا عند مروره على الخرطوم فى طريقه إلى فازوغلى «بأنشاء عشرة من السواقى». وعند عودته اليها عرض فيسان «على المسامع الخديوية أنه جهز أماكنها وأنشأ أثنين منها».

ولتسهيل ترحيل واردات السودان إلى مصر، وتحقيق رغبة محمد على فى أكتشاف

---

(١) محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل: بناء دولة محمد على (القاهرة ١٩٤٨)، ص ٧٥٤. أورد شكرى فى هذا المصدر رسالة أخرى فى هذا المعنى للقنصل الفرنسى. لنصها أنظر: رحلة محمد على، ص ٣٦-٣٧.

(٢) يقصد أمريكا.



نماذج من الحفر التى يجمع منها الأهالى التبر (صورتان)

منابع النيل « ليكون عمله تذكاراً وهدية للاخلاف (١) » ، إهتم التقرير بتطوير الملاحة النهرية بين البلدين . وتحدث بصفة خاصة عن عزم الباشا على « قلع الشلالات وإزالتها بنية توفير الأمان من المهالك والالام للسياح وهواة السياحة » . ولما كان إخراج هذه الفكرة من حيز الفكر إلى حيز الفعل محتاج إلى مدة مديدة . أمر الباشا بالبدء فى تكسير الحجارة فى شلال أسوان لفتح طريق للملاحة هناك « بالقدر الذى يسمح بمرور الذهبيات والسفن الأخرى » التى أقلت محمد على وحاشيته فى رحلتهم للسودان . ويبدو أن الكشف عن منابع النيل الأبيض قد كان هدفاً هاماً للرحلة إذ يحدثنا التقرير فى مواضع مختلفة عن الإستعدادات التى أمر الباشا بأعدادها خلال بقائه فى السودان لتسهيل مهمة البعثة التى عزم على إرسالها لإكتشاف منابع النيل الأبيض . فهو قد « أمر بأعداد الآلات والأيدى لكسر الشلالات من المحروسة والمديريات ، « كما أنه أوفد لهذه الغاية ستين جندياً من البحرية وثلاثة قباطن من الملمين بفن الرسم ، وزاد عليهم كاتباً قديراً للتقارير وخصص لركبهم ثلاثة من أفخر الذهبيات » . وفى نهاية التقرير نعرف أن محمد على قد عين سليمان كاشف « باشيوغاً » — ضابطاً عظيماً — للاشراف على القوات العسكرية التى خصصت لمصاحبة البعثة التى تقرر إرسالها للكشف عن منابع النيل الأبيض . ولما كان من المتوقع أن تواجه هذه البعثة مقاومة من الأهالى ، فقد وجه الباشا بتدعيم قوتها العسكرية « بضم ذهبيتين على الذهبيات المخصصة وإركاب ٥٠٠ جندى فيها بعد موسم الفيضان للمعاونة فى إكتشاف المنطقة إكتشافاً جيداً والإستعانة بهم فى تقوية أسباب المحافظة إذ لا يبعد أن يعترض طريقهم بعض الأشرار . وشرح للبعثة ماموريتها ، وأن تسير فى هذه الأيام على أن يكون بدء السير إلى أقصى ما يمكن السير عليه عقب هطول الأمطار » . لم يرد فى هذ التقرير إسم قائد هذه البعثة إلا أن مصادر أخرى (٢) قد أوردت أن محمد على قد أصدر فى ٩ رمضان ١٢٥٥/٦ نوفمبر ١٨٣٩ وعقب عودته من السود ن إلى مصر أمراً

---

(١) يبدو أن الكشف عن منابع النيل لم يكن هدفاً علمياً فى حد ذاته بل كان وسيلة للحصول على المعادن التى أعتقد محمد على وجودها هناك . فهو قد ظن أن تزايد إهتمام قناصل الدول الأوربية بمنابع النيل يعود — كما قال فى رسالة إلى الحكمدار خورشيد — إلى أنها « لا بد أن تكون فى نفس خط العرض الذى تقع فيه أمريكا . وبما أن المعادن قد وجدت بكثرة فى أمريكا فلا بد من وجودها فى منابع النيل » .

Hill : *Opcit*, *P*. 32.

نقلا عن : LB 220 Abdin, No. 137, 29 July 1836

(٢) راجع نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل الأبيض (القاهرة ١٩٦٠) و Hill : *Opcit*, PP. 68 - 70.

عالياً كلف بمقتضاه البكباشى المصرى سليم قبودان بهذه المهمة . هذا وقد قام سليم قبودان خلال الفترة ١٨٣٩ – ١٨٤٢ بثلاث رحلات فشلت كلها فى الكشف عن منابع النيل الأبيض . إلا أنها بددت الكثير من الآراء الخاطئة عنها .

وفى مجال تطوير المواصلات يحدثنا التقرير عن رغبة الباشا فى أن ينشىء « فى القريب العاجل » خطاً حديدياً من أسوان عبر صحراء العتمور إلى أبى حمد. وذلك ليتمكن تجار تلك المنطقة من توريد محصولاتهم إلى مصر دون تعب ومشقة لهم ولدوابهم.

العلاقات بين مصر وكل من دارفور والحبشة فى عهد محمد على :

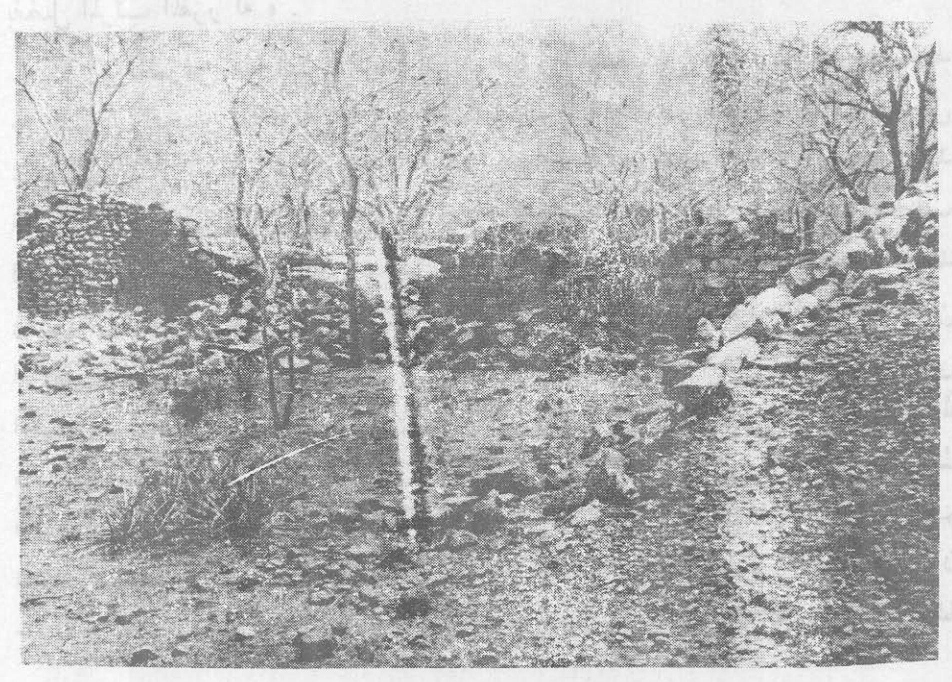
يلقى هذا التقرير أضواء على العلاقات بين مصر وكل من دارفور والحبشة فى عهد محمد على . فهو المصدر الوحيد – حسب علمى – الذى يحدثنا عن وفد مصرى مكون من عشرين شخصاً برئاسة أحمد بك الجداوى – « من قدماء الكبراء المصريين » – أرسله محمد على ١٢٤١/١٨٢٥ مع كثير من الهدايا القيمة لتأمين وتوسيع الطرق التجارية مع دارفور. وقد كان نصف أعضاء هذا الوفد من أتباع الجداوى والنصف الآخر من أتباع محمد على. غير أن سلطان دارفور محمد الفضل (١٢١٥ – ١٢٥٤ / ١٧٨٧–١٨٣٩) « قابل الإحسان بالإساءة » و رفض هذا العرض لتحسين العلاقات مع مصر . بل أعتقل الجداوى وكل أتباعه . وقد زعم التقرير أن محمد الفضل قتل ثمانية عشر منهم وسجن الجداوى نفسه. وظل الجداوى أسيراً لفترة لا نستطيع تحديدها ، ولكن الأستاذ هل قد أشار إلى أن محمد على قد سعى لإطلاق سراحه عن طريق بعض تجار أسيوط ممن إشتغلوا بتجارة الرقيق مع دارفور (١) . ويبدو أن « حادثة دارفور » هذه قد أثارت غضب الباشا وقوت من عزمه على غزو دارفور . وكانت إحدى الخطوات التى إتخذها فى هذا السبيل هى أن قرب اليه كل أفراد أسرة محمد الفضل الذين نافسوه فى الحكم وفروا إلى كردفان خوفاً من بطشه (٢) . ويحدثنا التقرير عن إثنين من هؤلاء : تيمة ومحمد أبو مدين ، عم وأخ

(1) *Ibid* P. 30.

٢ – هذا وقد أرسل محمد على فى سنة ١٨٣٠ خطاباً إلى محمد الفضل دعاه فيه للتسليم . إلا أنه رد عليه بخطاب رفض فيه ذلك رفضاً باتاً . وقال فيه : « أما علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهميه وعليها كهولة وشبان يسرعون إلى الهيجاء بكرة وعشية . أما علمت أن عندنا العباد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا . وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع الملك إلى أهله . » للنص الكامل لخطاب محمد على ورد محمد الفضل أرجع إلى نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان (الطبعة الثانية ،بيروت ١٩٧٢)، ص ٤٦٣–٦٤.

السلطان محمد الفضل على التوالى . ففى خلال بقاء الباشا فى الروصيرص فى طريقه إلى فازوغلى فى شوال سنة ١٢٥٤/ ديسمبر — يناير ١٨٣٩ جاءه « قاضى كردفان ومفتيها والسلطان تيمة». فأنعم عليهم « بالخلع الخاصة فلبسوها فى حضرته البهية وأعلى قدرهم بهذا الإنعام السامى». وبورد التقرير تفاصيل أكثر عن محمد أبو مدين « أصغر أخوة » محمد الفضل الذى هرب فى ١٢٥٢ / ١٨٣٦ « من ظلم أخيه وجوره وأعتصم بحكومة ولى النعم » . وعندما وصل محمد على إلى جبل الرويان شمالى الخرطوم فى ٥ رمضان ١٢٥٤ / ٢٢ نوفمبر ١٨٣٨ جاءه هناك من كردفان أبو مدين الذى وصفه التقرير بأنه « شاب قد حصل على قدر من القراءة والكتابة وأن لديه الإستعداد للتشرف بشرف المدنية بسبب صغرسنه ». وقد صحب أبو مدين ركب الباشا إلى الخرطوم حيث زعم أن أخاه «رجل مغرور واقع تحت تأثير الوهم . وفى سبيل إستقرار ملكه يبتعد مراحل كثيرة عن الحق والعدالة » ، ورداً على رجاء أبو مدين للأخذ بثأره من أخيه قال له الباشا : « إن رغبتى متجهة إلى إجلاسك مكان أخياك » . ثم أنعم عليه بطاقية « مزركشة بأسلاك الذهب وسيف مذهب » . وبعد ذلك عاد أبو مدين إلى كردفان « ليقيم فيها ناعم البال بفضل المرتب المقرر له » .

ونعلم من هذا التقرير أيضاً أن إمبراطور الحبشة سعى قبيل بدء رحلة محمد على للسودان لتحسين علاقات بلاده مع السلطات التركية — المصرية فى السودان بأن أرسل هدية للحكمدار أحمد باشا أبوودان . وقد إستجاب الأخير لهذه المبادرة بأن حمل أحد الأمناء خطاباً وهدية « نفيسةتليق بشرف مصر » إلى إمبراطور الحبشة . وقد بارك « الجناب العالى » هذا الإتجاه ودعمه بأن أعد قبل مغادرته القاهرة « هدايا نفيسة » لإرسالها عند وصوله إلى فازوغلى لإمبراطور الحبشة مع المعاون رستم بك من أقدم مرافقى الباشا من الموظفين المصريين . غير أن المشائخ « الذين تشرفوا بشرف لثم العتبات الكريمة فى الخرطوم » أقنعوا الباشا بأن يؤجل إرسال تلك الهدية إلى أن يعود رسول أبوودان سالماً من الحبشة ، « ويزول ما كان عالقاً بين الطرفين من الكدر» . وقد برر أحدهم — الضابط فسيان السالف ذكره — هذه النصيحة بقوله : « مولاى إن الأحباش قوم كالحمير وهم لذلك إذا ما عوملوا على هذا الوجه يخشى أن تقع حادثة مثل حادثة دارفور لأنهم محرومون من الإعتبار والمدنية » . وعندما علم الباشا بعد فترة وجيزة أن الرسول الذى أرسل للحبشة



البقايا السطحية لمدينة محمد على (صورتان)

قد عاد سالماً إلى القلابات فى طريق عودته للخرطوم ، وجه أباودان لإرسال «الهدية الخديوية المجهزة » إلى إمبراطور الحبشة مع أحد الضباط على أن يعمل ليأخذ من الإمبراطـــور « التعهدات الكفيلة بتأمين الطرق التجارية » بين البلدين .

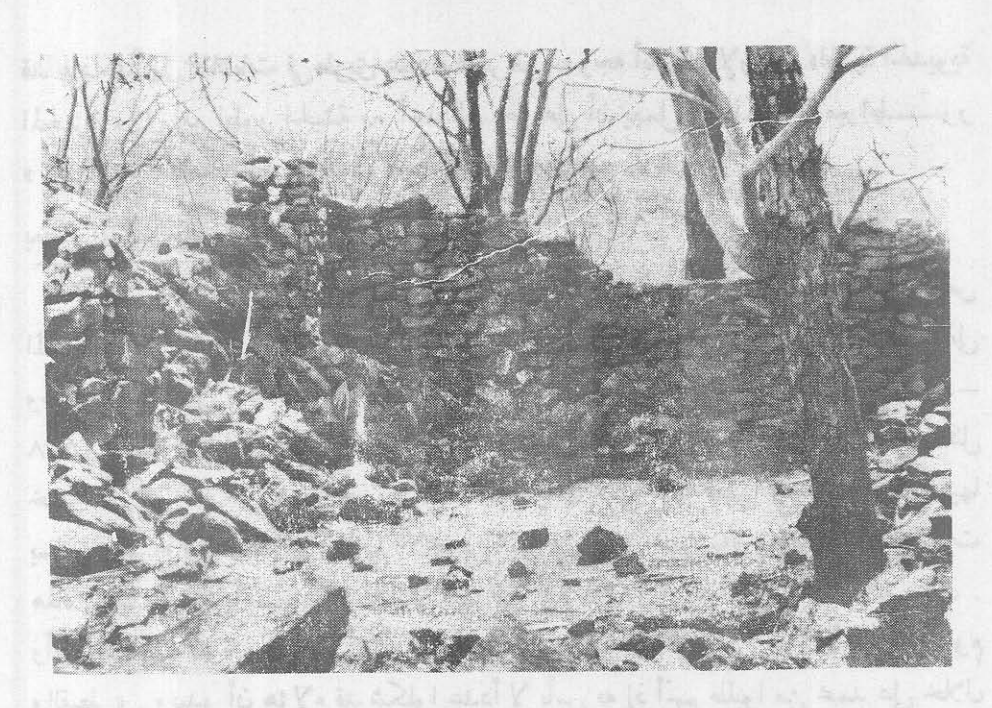
بعض المدن الســودانية فى التقرير :

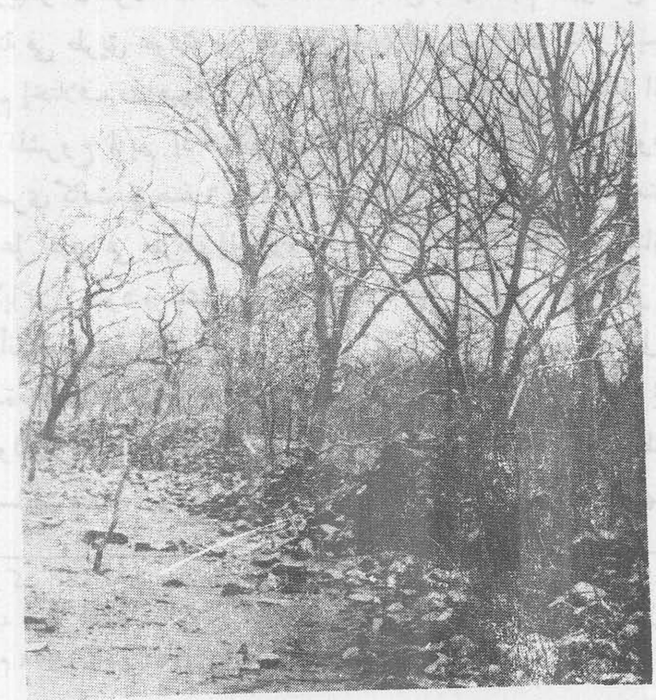
يشير التقرير إشارات عابرة لكثير من قرى ومدن السودان . إلا أنه يمدنا ببعــض المعلومات عن مدينتى الخرطوم ومدنى وعن مدينة جديدة أنشأها الباشا فى جهات فازوغلى وسماها محمد على . فقد كانت الخرطوم قبل عهد الحكمدار خورشيد باشا (١٨٢٦ - ١٨٣٨) «عبارة عن عدد قليل من المساكن البسيطة المصنوعة من القش والحطب على شكل خيمة » . غير أن خورشيد أحبها « لإعتدال هوائها فبنى فيها قصراً ومسجداً وأنشأ فيها بساتين وطرح فيها الحدائق وشجع الاخرين اليها فى سبيل عمرانها».وبفضل ذلك تطورت هذه المدينـــة حتى أصبح عدد المنازل فيها فى عام ١٨٣٨ أربعمائة إلى خمسمائة منزل . وأصبحت فى فترة وجيزة مركزاً تجارياً هاماً تجمع فيه « كثير من ملل الأفرنج والروم والقبط » . ويبدو أن هؤلاء قد شكلوا عدداً لا بأس به إذ أنهم طلبوا من محمد على خلال زيارته للمدينة فى طريق عودته من فازوغلى (١) أن يسمح لهم ببناء كنيسة يتعبدون فيها مجتمعين رغم إختلاف مذاهبهم . ووافق الباشا على ذلك « بقصد إعمار المدينة » . إلا أنه يبدو أن هذا المشروع لم يتم إذ أننا نعرف أن أول كنيسة أقيمت فى السودان خلال العهد التركى - المصرى كانت فى سنة ١٨٤٦(٢). أما مدينة مدنى فقد بلغ عدد منازلها عند مرور ركب محمد على عليها فى طريقه إلى فازوغلى «نحو مائتى أو ثلاثمائة من المنازل وثكنة كبيرة تستوعب الأيا من الجنود ومستشفى وشونة وسوقاً عظيماً تفتح ثلاثة أشهر فى العام » .وقد أمر الباشا بأنشاء مدينة محمد على بالقرب من فازوغلى عنــد وصوله إلى ذلك المكان فى ١٧ذو القعدة ١٢٥٤/١فبراير ١٨٣٩ .ولكى تكون هذه المدينة جديرة « بحمل هذا الإسم الكريم » ، ولكى تكون « أعظم وأكبر بلاد السودان » ، أمر الباشا بأحاطتها بسور وإنشاء الحدائق والبساتين فيها ، وإسكان كل من يرغب فى سكناها والإقامة فيها » .

---

(١) وصل ركب الباشا من فازوغلى إلى الخرطوم فى ٧ ذو القعدة ١٢٥٤/ ١١ فبراير ١٨٣٩ .

(٢) سعاد عبد العزيز أحمد : التعليم غير الحكومى فى شمال السودان ١٨٩٨-١٩٥٦ (رسالة ماجستير ، الخرطوم ١٩٧٩) ص ٢٢١.





البقايا السطحية لمدينة محمد على (صورتان)

وتوجد حتى يومنا هذا بقايا مدينة بناها الأتراك – المصريون فى الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق فى مواجهة قرية أم درفة الحالية . وتعرف بأسم فامكة ، وغالباً ما تكون بقايا مدينة محمد على السالفة الذكر . وقد حدثنى أحد أهالى أمدرفة – رمضان محمد مقبول الذى يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً – أن عدداً من المصريين قد أستقروا فى تلك الجهات . بل أن المصرى يوسف حمد أغا وعائلته ما زالوا يسكنون حتى يومنا هذا فى قرية العرديبة التى تقع بالقرب من أم درفة .

السودانيون فى التقرير:

لعلنا نعلم جميعاً أن طبيعة وعادات السودانيين وقت كتابة هذا التقرير تختلف عما هى عليه اليوم . فقد عرف عنهم – خاصة الزنوج منهم – إصرارهم على حياتهم البسيطة فى ديارهم وجبالهم ، وإقتناعهم باليسير جداً من مطالب العيش . غير أن مدونى هذا التقرير قد تناسوا هذه الحقيقة خاصة عند حديثهم عن من سموهم « الجبليون » (١) من « طوائف العبيد » . فقد تحدث التقرير عنهم بازدراء وسخرية ووصفهم « بأنهم كالأنعام لا يفقهون شيئاً عن أحوال العالم . وهم قوم متشردون يسكنون الصحراء والبرارى . وكل حياتهم عبارة عن جهل وكسل . ومشاكلهم مقرونة إلى البيع والشراء من بنى نوعهم . ومن يملك منهم سريراً يسمى العنقريب ، أو يستطيع أكل الحبال المأخوذه من الجلد(٢) كلما جاع فهو الغنى المتشرف بالشرف المفرق بين السماء والأرض».ويعكس هذا الزعم الإعتقاد المتجنى الذى شاع ذلك العضر عن بدائية وهمجية ووحشية السودانيين. ولعل مدونى هذا التقرير قد قصدوا بذلك أيضاً تبرير نظرة محمد على المتعالية والوصاية التى إفترضها لنفسه على السودانيين . فبينما يزعم أن إبتلاء السودانيين بالعداوة « جعل ميولهم منحصرة فى الغارة » إدعى فى موضع آخر « أن سفك الدماء مخالف لأمر الجناب العالى فى كل الوجوه » . وتظهر الوصاية التى أدعاها الباشا على السودان من زعم التقرير

(١) المقصود بالجبليين الزنوج سكان البلاد الأصليين . وسموا كذلك لأنهم يسكنون فى الجبال . ويسمون أنفسهم الآن « الجبلاويون » . وهم ينتمون إلى عدد من القبائل مثل قبيلة فامادو وفارنجو والرقاريق . وقد تزاوج فيهم السودانيون العرب الذين نزحوا إلى تلك المناطق بغرض التجارة . ونتج عن ذلك مجموعات زنجية – عربية لا تزال تسكن هذه المناطق . وقد تحدثت خلال رحلتى الميدانية مع عدد منهم ولاحظت أنهم يفضلون تعريف أنفسهم بقبائل آبائهم : جعليين ، محس ، دناقلة الخ ، ولا يرضون مطلقاً أن ننسبهم إلى الفلاته. بل وأن العلاقات بينهم وبين المجموعات الكبيرة من الفلاته التى تسكن على ضفاف النيل الأزرق غير ودية .

(٢) أنظر هامش رقم ٧ ص ٣٥ .

أن السودانيون قد ظلوا مستغرقين « فى غياهب الجهل والكسل لأنهم لم يوفقوا إلى سيد رحيم يوجه اليهم أنظارهم ويشملهم برعايته منذ أن خلقهم الله إلى العصر الحاضر . فبقوا على الفطرة كما يشهد بذلك الواقفون على أحوال الناس . ولكن الله قيض لأولئك الهائمين فى وادى الحرمان ولى النعم العادل الرحيم فجاءهم كالخضر من لدن الرب المجيد . و كان لمقدمه السعيد فيضاً وبركة . ونفخ روح الحياة فى سكان البلاد الذين كانوا كالأموات فعادوا إلى الحياة أنفر وأقوى مما كانوا . وأقر بذلك العلماء والمشائخ ، ولمس ذلك كل فرد من أفراد الشعب ». وتظهر هذه الوصاية بصورة أوضح فى خطاب وجهه الباشا لمشائخ البلاد زعم فيه : « لا يخفى على ذوى العقول أن سكان أقسام المعمورة كانوا مثلكم فى العصور التى خلت محرومون من الرفاهية . ولكن سكان كل قطعة نالوا الشرف الإنسانى وحظوا بالرفاهية والنعم . فحباهم الله بالطاقة الصمدانية. كل هذا نالوه عن طريق دليل إتخذوه لهم . فهانذا دليلكم . فسيرُوا على بركة الله وأقبلوا نصائحى و تمسكوا بالأسباب التى سأشرحها لكم. وإنى آمل من فضل الله الخلاص لكم من أحوالكم الموجبة للملال . . . . . وهذه الدنيا مقسمة إلى خمس قارات وليس فيها إلا قارة إفريقيا سكانها هم الذين حرموا من لذة المأكولات والمشروبات ومن فوائد التجارة » . بل أن التقرير قد زعم أن « سكان الممالك الإسلامية » قد إعترفوا بقصورهم وعجزهم وتشرفوا بقبول تلك الوصاية طواعية وعن رضى إذ تأثر مشائخهم بما جاء فى هذا « الخطاب السامى » الذى جعلهم « يذرفون دموع الفرح من تأثرهم بهذه المجاملات » . وجاء فى ردهم على خطاب الباشا :

« يا محسن من لطفك أحسنت الينا

تالله لقد آثرك الله علينا

نحن فى الحقيقة أجهل من فى الأرض وأحط من فى درجات الطول والعرض ! ! »

ولا أظننى فى حاجة للقول بأنه لا يمكن أن يحط إنسان — مهما كان — من قدره بهذه الصورة . وبالتالى فالراجح أن هذا الرد المزعوم قد قوله مدونو التقرير لأولئك المشائخ .

٦ — التقرير والغزوات لصيد العبيد :

عندما نشر الرحالة الذين زاروا السودان وغيره من البلاد الإفريقية التى إشتهرت

بتجارة الرقيق فى القرن التاسع عشر كتبهم فى أحوال الرقيق قامت حركة قوية فى أوربا تهدف إلى إلغاء الرق وتجارة الرقيق هناك . وقد بادرت الحكومة البريطانية بالإتصال بمحمد على فى نوفمبر ١٨٣٧ بأن أوفدت قنصلها كامبل والدكتور جون بورنج (١) لمقابلة الباشا ، وحثه على الغاء هذه التجارة المشينة. وقد وعدهم بالعمل فى خطوات وئيدة لإلغائها إذ أنه — حسب زعمه — لا يمكن القضاء عليها قضاءاً مبرماً فى مرة واحدة (٢) .
وقد ذكر شكرى فى مقاله عن رحلة محمد على للسودان أن الباشا قد أصدر وهو بالخرطوم « الأوامر الرسمية بأبطال صيد الرقيق» (٣). ويقصد بذلك الغزوات المسلحة التى درج المسئولون فى السودان منذ بداية الغزو التركى — المصرى على إرسالها سنوياً لأخذ الناس رقيقاً بالقوة من جبال النوبة وأوطان الشلك على ضفاف النيل الأبيض . وأضاف شكرى أن الباشا قد أذاع من الخرطوم المنشورات مؤكداً ذلك (٤) .

غير أنه قد إسترعى إنتباهى أن تقرير الرحلة لم يتضمن مطلقاً تلك الأوامر المزعومة ، بل أن ذلك لم يرد حتى فى ترجمة شكرى نفسه لهذا التقرير . وعليه فحتى إذا أصدر محمد على هذه الأوامر قبل بدء رحلته ، فمن الغالب أنه لم يكن مقتنعاً بذلك بل فعله تحت ضغط الدول الأوربية . فلو أنه كان مصمماً على وقف تلك الغزوات لأعلن عن تلك السياسة خلال رحلته وحث مرءوسيه على تنفيذها كما فعل ذلك مراراً فى شأن التنقيب عن الذهب وتطوير الزراعة . بل أن التقرير يذكر أن الحكمدار أحمد أبو ودان (١٨٣٨ — ١٨٤٣) قد قام خلال تواجد محمد على نفسه فى السودان بأرسال غزوتين : الأولى إلى جبل رقاريق فى جهات فازوغلى حيث أسر نحو خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال، والثانية إلى « سكان الجبال فى جهة كردفان » التى أسر فيها عدداً آخر من العبيد .

خاتمة :

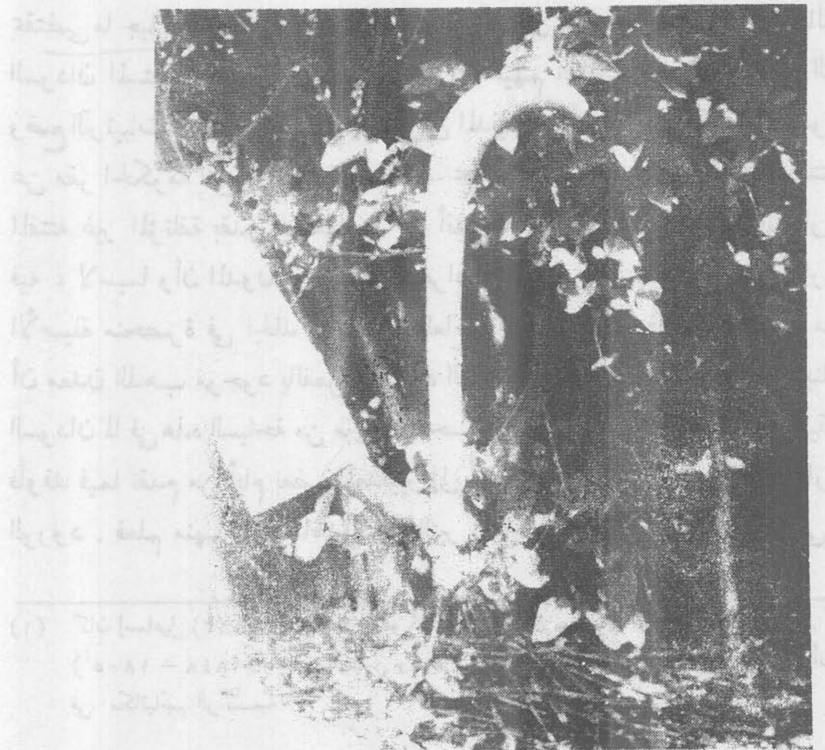
بالغ مدونو هذا التقرير فى تعظيم محمد على والتطبيل له . فهم قد وصفوه بالحرص الدائم والمستمر على مصالح الرعية تارة ، وبالتمتع بالحكمة البالغة والشجاعة النادرة

---

(١) شكرى : بناء دولة محمد على ، ص ٥٧٨
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٧٨ .
(٣) رحلة محمد على ، ص ٤٠
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٠

والثبات الفريد عند الشدائد والمحن تارة أخرى . رغم ذلك فأن أهمية هذا التقرير تنبع من أنه يؤيد وجهة النظر القائلة بأن إستغلال موارد السودان كان الهدف الرئيسى للغزو التركى — المصرى للبلاد سنة ١٨٢٠ — ١٨٢١ . وفى نفس الوقت فأنـــه يمدنا بمعلومات هامـــة — وأحياناً جديدة — عن سودان ذلك الزمن .





صورتان للطرنباش

نص وتحقيق التقرير

مركز أبحاث تاريخ مصر المعاصر ، علبه السودان ، رحلة ساكن الجنان مولانا الكبير محمد على إلى السودان ، مترجمة عن وثيقة تركية محفوظة فى ملف المتفرقات (دوسيه بدون تاريخ من المحفظة نمرة ١٢٣ عابدين ، رجب - شوال سنة ١٢٥٤)

لما كان مولانا الخديو(١) صاحب المآثر العالية – دام فى مركز جلاله إلى يوم القرار – موفقاً من لدن الحق جل وعلا فى تكوين أمه حسيمة وأنتاج أعمال عظيمة ، فأنه منذ ذلك الوقت السعيد الذى تربع فيه على أريكة العز والشأن ، وأستظل سكان البلاد بطول سطوته إلى هذا الوقت المحفوف بالمسرات ، حكم كل الذين حنكتهم التجارب ، وجزم سكان كل ديار بأنه عاهد نفسه على إستحصال أسباب الرفاهية للرعايا ، وإستكمال وسائل الأمن والطمأنينة للبرايا.. وكان ديدنه تنظيم مناظم البلاد وتقديم مصالح العباد . فقام بمقتضى ما جبل عليه من علو الهمة وسمو الرأفة إلى النظر بعين العناية إلى حالة سكان بلاد السودان المستظلين بظلاله السنية الذين رأى فيهم القابلية لإقتباس لوامع النظام ، وإلى وضع الترتيبات الكفيلة بتحويلهم إلى طريق المدنية. ورأى بثاقب فكره أن السودان – لبعده عن مقر الحكومة التى هى منقبة العدالة – محتاج إلى توحيد تطوير سكانه المشتتة وأمزجتهم المفتته غير المؤتلفة بقدر الإمكان ، كما أنه محتاج إلى إستقرار الشئون التجارية والزراعية فيه ، لاسيما وأن المدون فى كتب الجغرافيا والمشهور إلى يومنا هذا أن تجارة السودان الأصيلة منحصرة فى الجلد والصمغ والعاج والتبر وما إلى ذلك . ويتضح من هذا بجلاء أن معدن الذهب موجود بالفعل فى هذه البلاد . ولهذه الأسباب إعتزم جنابنا العالى زيارة السودان لما فى هذه السياحة من مبررات حسنة ، وقرر الوصول إلى معرفة حقيقة هذا التبر . فأوفد فيما تقدم من أيام بعض المعدنيين إلى أقاصى بلاد السودان وأطلع على تقاريرهم المتعاقبة الورود . فعلم منهم أنهم شاهدوا أثر التبر الموجود فى الوديان الموجودة فى الأراضى

(١) كان إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) هو أول من منحه الإمبراطور العثمانى لقب خديو . إلا أن محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) وخليفتيه عباس وسعيد (١٨٤٨ - ١٨٦٣) أطلقوا أحياناً على أنفسهم هذا اللقب فى مكاتباتهم الرسمية .

المنبسطة فى قزنقور(١)وما جاورها(٢). فأستقر رأيه على إستخراج التبر. وعمد إلى صاحب السعــادة خير الدين بك، الذى أحرز رتبة الأمير الاى فى البحرية المصرية المنصورة وحصل على الفخار والإمتياز بأستخدامه أكثر من سنتين فى المصالح الداخلية (٣). فأعلى درجته بتعينه أميناً للمعدن المذكور. وضاعف شهرته وعقد العزم على تتويج مجموعة آثار حضرته الخديوية بقلع الشلالات وإزالتها بنية توفير الأمان من المهالك والالام للسياح وهواة السياحة. ولما كان إخراج هذه الفكرة من حيز الفكر إلى حيز الفعل، محتاج إلى مدة مديدة رأى أن يبدأ العمل فى شلال أسوان فتكسر الحجارة وتفتح الطرق للملاحة فيه بالقدر الذى يسمح بمرور الذهبيات (٤) والسفن الأخرى ناشرة أشرعتها آمنة من الخطر والهلكة. وغنى عن الإيضاح أن البحر الأبيض (٥) يجرى من الجهة الغربية لجزيرة سنار، ومــن

---

(١) المقصود قرية كشنكرو الحالية الواقعة غربى أغرو. هذا وقد ظن محمد على أن الذهب يوجد فى « خور الذهب » الواقع على مسيرة خمس ساعات جنوبى هذه القرية. غير أن شكرى قد أورد فى ترجمته نصــاً مبهماً قال فيه أن مناجم الذهب وجدت « بجوار فاشنغارو » فى « أقاصى السودان ».
رحلة محمد على، ص ٤٥.

(٢) أرسل محمد على فى إبريل ١٨٣٧ بعثتين للتنقيب عن الذهب هناك: الأولى بقيادة المهندس النمســاوى روسيجير (Russegger)، والثانية بقيادة مهندسه الخاص بوريانى (Piedmontese Boreani).
وبعد مضى ستة أشهر فى التنقيب هناك رفعت البعثتان للباشا تقريرين متضاربين تضارباً تاماً. فبينما كان روسيجير متفائــلا أوضح بوريانى عدم جدوى البحث عن الذهب فى تلك المناطق. راجع محفظه رقم ٢٦٥ عابدين، ملف حكمدار السودان، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٨ بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٢٥٤و Hill, *Opcit*, p. 67. ولمقططفات باللغــة الانجليزية من تقرير روسيجير التى كتب اصلا باللغة الالمانية أرجع الى: Dunn: *Notes*, pp. 26-37. ويبـدو أن محمد على قد غضب على بوريانى لتقريره المتشائم مما إضطره إلى تغيير رأيه زاعماً أن الطريقة التى أتبعها فى التحليل لم تكن دقيقة.
رفاعة رافع الطهطاوى: مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية (الطبعة الثانية، القاهــرة ١٩١٢) ص ٢٥٥ – ٢٥٦. وقد أرغم محمد على بوريانى – رغم إصابته بالحمى – على الذهاب مــرة أخرى للتنقيب عن الذهب فى تلك الجهات مهدداً بفصله من منصبه كدير لترسانة (دار السلاح) بولاق إن لم يفعل ذلك Hill: *op cit*, p. 67.

(٣) يقصد أنه عمل موظفاً لمدة عامين فى المصلحة المختصة بالشئون الداخلية.

(٤) جمع ذهبية وهى المركــب للركاب.

(٥) يقصد النيــل الأبيض.

الجهة الشرقية البحر الازرق (١) . ومع ذلك فأنهما يتصلان أحدهما بالآخر في الجهة البحرية من بلدة الخرطوم المعدودة من مرافيء جزيرة سنار على بعد ربع ساعة منها . ومع ذلك فان الجناب العالى رغبة منه في إستكشاف المنابع (٢) وتحقيق ما كتبته كتب الجغرافيا ليكون عمله تذكاراً وهدية للأخلاف ، أمر بأعداد الالآت والأيدى لكسر الشلالات من المحروسة (٣) والمديريات وإرسالها . كما أنه أوفد لهذه الغاية ستين جندياً من البحرية وثلاثة قباطن (٤) من الملمين بفن الرسم ، وزاد عليهم كاتباً قديراً للتقارير (جرنالجى). وخصص لركوبهم ثلاثة من أفخر الذهبيات . ثم قام على إبراهيم خير الدين بك أمين المعدن في ٢٧ جمادى الآخر (١٢٥٤) (٥) مستصحبا معه الالات الصناعية والأدوات العدنية . ثم أرسل في التاسع من رجب (٦) صاحب السيادة الأمير الاى رستم بك - أحد أعضاء شورى المعاونة (٧) - ليتولى الإشراف على الذهبيات والفنجات (٨) من شلالات أصوان (٩) ووادى حلفه . وذلك مراعاة للاحتياط إذا ما تعذر مرور الباخرة . ثم تحرك ركاب مولانا الدوار الاكرم والخديو المعظم في السادس والعشرين من رجب (١٠) المرجب وركب الباخرة مستعيناً بعناية الإله مستصحباً معه صاحب السعادة الميرلو (١١) يعقوب بك

(١) يقصد النيل الأزرق .

(٢) يقصد الكشف عن منابع النيل الأبيض .

(٣) يقصد القاهــرة .

(٤) جمع قبطان وهو البحــار .

(٥) الموافق ١٧ سبتمبر ١٨٣٨

(٦) الموافق ٢٨ سبتمبر ١٨٣٨

(٧) يقصد ديوان شورى المعاونة الذى سمى أيضاً ديوان المعية السنية . وهو إسم أطلق على ديوان الوالى أى حاشية الوالى . وبعد مرض محمد عــلى سنة ١٢٦٤/١٨٤٨ قــام هذا الديوان بمهمة مجلس خاص ســمى « المجلس الخصوصى » . وكان لقراراته قوة قرار الوالى . وقد أطلق على هذا الديوان بعد زوال نظام الخديوية فى مصر إســم « الديوان السلطانى » « والديوان الملــكى » . وعند نهاية الملكية فى مصر أطلق عليه إسم « ديوان الجمهورية المصرية » ، بينما سمى فى أول فبراير ١٩٥٨ « ديوان رئاسة الجمهورية العربية المتحدة » . مطبوعات دار الوثائق التاريخية القومية : المعية السنية ، السجل الأول من ٦ محرم سنة ١٢٤٥ إلى ٦ رجب ١٢٤٦ ، فى المقدمة .

(٨) جمع فنجة وهى المركــب .

(٩) المقصود أســوان .

(١٠) الموافق ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ .

(١١) المقصود أمير اللــواء (Amir-i livā)

المخصص لخدمات سموه السنية ، وتسعة أشخاص من رجال حاشيته الحائزين على رتبة القائمقام ، والبكباشى (١) والغول أغاس (٢) ، وجناب المحترم توسيجية ، قنصل عام دولة اليونان (٣) الذى أظهر رغبة فى السفر فى الموكب الخديوى ، والميرالاى غبطانى بك (٤) كبير الأطباء ، والقائمقام عارف أفندى أحد نظار أقلام المعاونة ومعه ثلاثة من الكتاب (٥) . وسار الركب الميمـــون بالقرب من شاطىء النيـــل لتيسير مشاهدة القرى وزراعتها. ولما وصل الركب السعيد أمام قرية العطف – التابع لإقليم الجيزة والواقعة على مسيرة سبع ساعات من المحروسة – توقفت الباخرة عن المسير بسبب مصادفتها وحلا . فهرعت الخلائق من كل فج وزاد عددهم عن الألف ، وسعوا بحراً وبراً لتطهير الطريق ، ولكنهم لم يجدوا سبيلا لذلك. فتعطف مولانا وسمح للمتجمهرين بالعودة إلى مساكنهم بعدأنأجزلهم العطايا السنية فى مقابل ما لقوه من التعب والمشقة. ووصل الكثيرون ومعهم الالات الواقية من الإقليم المذكور ومن ترسانة بولاق عقب إنصراف الفلاحين . وأمكن تخليص الباخرة من المكان المذكور . وبعد أن صدرت الأوامر إلى المنقذين بتعقب آثار الموكب السعيد ، إستقل الباخرة وسار الموكب البحرى بعد عصر اليوم التاسع والعشرين من رجب (٦) قاصداً المنيا ، فوصل اليها فى غرة شعبان (٧) ، فنزل بالقصر الخديو الكائن بالمينا وشرفه بمقدمه المبارك . وتصادف وجود حضرة صاحب العطوفة سليم باشا مفتش الأقاليم الصعيدية فحظى بشرف المثول وتقبيل عتبات ولى النعم . ومكث جنابه

---

(١) المقصود البنباشى (Binbasi) . وهو الميجور أو قائد البلتون .

(٢) المقصود "صاغ غول اغاسى" (Sāg Qol Agasi) أو صول غول اغاسى.(Sol Qol Agasi)والأول ضابط عظيم مهمته قيادة الجيش فى الجناح الأيمن بينما كان على الثانى قيادة الجيش فى الجناح الأيسر . هذا وإن الأول أعلى رتبة من الثانى .

(٣) المقصـــود Mikhail Tossitza (١٧٨٧ – ١٨٥٦) الذى عمـــل قنصلا لليونان فى مصر خـلال الفـــترة ١٨٣٣ – ١٨٥٤ و كانت له علاقات صداقة مع محمد على ، كما امتلك تجارة واسعة تمركزت فى الأسكندرية وتوفى فى أثينا .
Hill, R. A Biographical Dictionary of the sudan (2nd London 1976), p. 361.

(٤) ورد هذا الإسم خطأ فى ترجمة شكرى «جيطانى بك» رحلة محمد على ، ص ٤٧ .

(٥) ذكر هل أن ضمن من صحبوا الباشا فى رحلته المعدن أحمد أفندى يوسف وثلاثة مهندسين فرنسيين – دارنو D'Arnaud ولامبرت Lambert وليفـــبره . Hill: *op. cit,* p. 67. Lefebre. لم يذكر التقرير أسماء هؤلاء الرجال الأربعة بالتحديد ولكن يبدو أنهم كانوا ضمن التسعة أشخاص من رجال حاشية الباشا الذين ذكروا فيه . هذا وقد كان ليفبره مهندساً مشهوراً ببراعته فى علم المعادن . وقد سبق أن إستخدمه محمد على فى مدرسة المعادن المصرية . الطهطاوى : مناهج الألباب ، ص ٢٥٦ .

(٦) الموافق ١٨ أكتوبر ١٨٣٨

(٧) الموافق ٢٠ اكتوبر ١٨٣٨

العالى بالمنيا يومين قضاهما فى إصدار التنبيهات المتعلقة بشئون الأقاليم ، وتسوية مصلحة الذخائر الحجازية (١) . ولما وصلت الأنباء بوصول الباخرة أمام ساقية موسى (٢) إحدى البنادر الصعيدية، إستقل جنابه العالى الباخرة منها فوصل إلى إسنا يوم الخميس(٣) حيث زاد أهلوها فخراً بشرف قدوم ولى النعم. وغادرها يوم السبت فوصل منها إلى بلده أسوان فى التاسع من شهر شعبان(٤). ورأى فيها سموه أن الذهبيات التى يستغلها المندوبون للبحر الأبيض قد مرت من الشلال وأمر بذهابها إلى الخرطوم (٥) . وأتضح أن الباخرة لم تستطع المرور مـــن الشلال ورئى أن الحاجة ماسة إلى الذهبيات التى مرت بصحبة رستم باك الذى أسلف ذكره. فوصلت أمام برية أصوان (٦) المعدودة من الأعاجيب المصرية . فأنتقل جنابه العالى إلى الذهبيات فى ١١ شعبان(٧) قاصداً إلى المكان المقصود .

وفى ١٣ و ١٥ و ١٦ شعبان(٨) مر الركب على كرسكو ووادى حلفه(٩) وعبكة(١٠) ومر فى اليوم السابع عشر من شعبان (١١) من شلالات سمنة و كسنجرة (١٢) . وشرف مولانا ولى النعم الفنجة الخاصة بسموه بزيارته الشريفة ليكون ذلك باعثاً على تشجيع من كانوا فى معيتة السنية . ومر فى الساعة العاشرة والنصف من النهار من شلال أمبكـــوة

---

(١) يقصد الأوامر التى أرسلها الباشا فيما يتعلق بتموين الحجاز .

(٢) بدلا من ,, ساقية مـوسى '' سمى شكرى هذا المكان « موســى » . رحلة محمـــد عـلى ، ص ٤٧

(٣) أخطأ شكرى بأن ذكر أن ركب محمد على وصل إلى إسنا يوم الجمعة . المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٤) الموافق ٢٨ أكتوبر ١٨٣٨ .

(٥) يقصد الثلاث مراكب التى أمر محمد على بأرسالها لإكتشاف منابع النيل الأبيض . إختار محمد على خير الدين ليتولى قيادة هذه البعثة . إلا أنها لم تبحر من الخرطوم إذ أن محمد على أعفى خير الدين من قيادتهـا وأوكل ذلك لضابط بحرى آخر . وهو البكباشى سليم قبودان .

(٦) يقصد أسـوان .

(٧) الموافق ٣٠ أكتوبر ١٨٣٨ .

(٨) الموافق ٣١ أكتوبر و ٣ نوفمبر و ٤ نوفمبر ١٨٣٨ على التوالى .

(٩) المقصود وادى حلفـــا .

(١٠) أخطأ شكرى بتسمية هـــذه القرية أبكة . رحلة محمد عـــلى ، ص ٤٨ .

(١١) الموافق ٥ نوفمبر ١٨٣٨ .

(١٢) زعــم شكرى أن ركب الباشا وصل فى ذلك اليوم إلى مـــكان سماه « كشنفارو » . المصدر السابق ، ص ٤٨ .

وأنتظر حتى الصباح وصول الذهبيات . ولم يكون مع سموه شيء من المأكول والملبوس، ولكن لم يشاهد أى أثر للمراكب . ولم تصل أنباء عن مكان وجودها فأنشغل خاطـره الشريف وخاف أن تكون الذهبيات قد مسها سوء . وتبلبل بلبابه (١) وفقد الراحة فأضطر إلى العودة فى الساعة الرابعة نهاراً . ورأى أحدى الذهبيات وقد مرت من الباب الأول . وبينما كانت على وشك المرور من الباب الثانى مع عدم هبوب الرياح إنقطعت الحبال التى كانت تجر بها من شدة التيار، وأخذت الذهبية فى التراجع فجأة فأصطدمت بحجر وأصيبت بعطب. فتعالت الأصوات منذرة بهجوم الماء إلى داخلها طالبة المدد والمعونة. وكان هذا النداء موجباً لفتور العزائم فى خلال بضع ثوان. وأضطر مولانا حفظه الله أمام هذا الإضطراب أن ينزل فيقف على قطعة من الحجر فى مجرى النيل. وأخذت الذهبية تنطلق من البقعة التى التى أصيبت فيها سائرة مع التيار بسرعة . إلا أن النويتة (٢) تمكنوا من نشر القلوع (٣) ووضع العقبات . وبفضل ما فعلوه التصقت بالساحل وطلبوا فنجة فوصلت، إلى مكان موافق . ولكن شاء القدر أن يصبها بنزع التيار الشديد سكانها (٤) من مكانه . ولكن أحد رؤساء الشلالات لم يفقد شجاعته ولم يخشى شدة التيار على الرغم من كثرة الأحجـــار فى تلك البقعة . وأخذ يسبح حتى تمكن من إخراج السكان ووضعه فى مكانه . وعقـب ظهور هذه الشجاعة النادرة والمهارة ، ركب ولى النعم الفنجة وأخذ النويته يجدفون بقوة . وكان مولانا حفظه الله يبث فيهم روح النشاط ويحضهم على العمل منادياً أياهم هيا يا شباب. ولما خرج حفظه الله إلى شاطىء السلامة تفضل فوجه الخطاب إلى الأغا القهوجى باشى (٥) قائلا « أن الريح تهب الآن فعجل وأسع إلى سد الثغرة فى الذهبية وأنشر هذه القلوع ومر من مضيق الغرب». وعقب صدور هذا الأمر السامى نشر الأغا القلوع .وبينما

---

(١) المقصـود إهتم بالأمر .

(٢) يقصد النواتية أو النواته . جمع نواتى وهو الملاح .

عون الشريف قاسم : قاموس اللهجة العامية فى السودان (الخرطوم ١٩٧٢) ، ص ٧٩٥ . وسأرجع لهذا المصدر فيما بعد ب : قاموس اللهجة .

(٣) القلوع جمع قلع وهو الشراع .

(٤) يعرف السكان فى اللهجة العامية فى السودان بالدفة . وهو الجزء فى مؤخرة السفينة لإمالتها من جهة لأخرى . المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٥) القهوجى هو صانع القهوة لمحمد على . وهو موظف صحب الباشا فى كل رحلاته وكان مسئولا أيضاً عن الإشراف على طعامه .

كانت الذهبية تقف تارة وتتراجع مرة أخرى إذ لحقتها العناية الربانية وأخرجتها مما هى فيه إلى ساحل السلامة . وكان رستم بك مكلفاً بأمرار الذهبيتين ، فتمكن هو الآخر بفضل الله تعالى على التغلب من شدة التيار وأوصلهما سالمتين. فشمل الجميع السرور وسدت الثغرات ورمت الخسائر. وفى ٢٠ و٢١ شعبان(١) مر الركب على تيمون فبنى عكاشة(٢). ولم يمكن المرور من شلال دال (٣) إلا بعد صعاب كثيره . ثم شرع فى إتخاذ التدابير الكفيلة بالمرور بسهولة من شلال فاجيار (٤) الصعب المرور . وأقترب الركب من الشلال المذكور يوم ٢٢ شعبان (٥) ، ولكن المرور منه بدون جر أمر محال . وكان الأقرب إلى الإحتمال أن يكون المرور منه بواسطة الجر لإمكان الوصول إلى الساحل ، إلا أن القهوجى باشى تعجل وأمر الساحبين بأن يتركوا الحبال ظناً منه عدم وجود مهالك ومصاعب . ولما نشر النوبيته أشرعت الترانكت (٦) ولكنها لم تنتفخ باهواء لقلة الريح الموافقة ولشدة التيار . لم تستطيع الذهبية التقدم ، بل أخذت تتراجع بغتة وزاد القلق عليها خشية من إمتلائها برذاذ (٧) المياه وإصطدامها بالحجارة تحت ضغط التيار . وأخذ أكثر من فى الذهبية يسعى للخروج منها خوفاً على حياته من الموت . ومن بقى فيها أخذوا يصرخون ويولولون ليسرع مولانا ولى النعم إلى مغادرتها . ولكن مولانا قال لهم بلهجة التأكيد: « لا تجعلونى فى حيرة من أمرى كما فعلتم فى شلال أمبكوة (٨) ودعونى لتجاربى » . وثبت فى الذهبية وأمر الملاحين بأن يقبضوا على مقابض المجاديف مشجعاً إياهم بكلمة هيا يا شباب . فأخذوا يجدفون بقوة . وأمر بنشر القلوع وأمدته العناية الصمدانية ووافته السلامة والحمد لله. وتمكن من المرور فى ٢٣ شعبان(٩) من شلال حك(١٠)

---

(١) الموافق ٨ و ٩ نوفمبر ١٨٣٨ على التوالى .

(٢) تيمون وبنى عكاشة أسماء قريتين .

(٣) جاء إسم هذا المكان فى ترجمة شكرى « ضال » . رحلة محمد على ، ص ٤٩ .

(٤) جاء إسم هذا المكان فى ترجمة شكرى « كشغار » . المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٥) الموافق ١٠ نوفمبر ١٨٣٨!

(٦) يبدو أن الترانكت نوع من القماش .

(٧) رذاذ أو رزاز يعنى فى العامية السودانية المطر الضعيف . قاموس اللهجة ، ص ٢٨٥ .

(٨) ورد إسم هذا المكان فى ترجمة شكرى « أمبوجل » . رحلة محمد على ، ص ٤٩ .

(٩) الموافق ١١ نوفمبر سنة ١٨٣٨ .

(١٠) المقصود قرية حنك شمالى كرمة .

بالسلامة . ولم يتيسر لذهبية كبيرة الهيكل أن تمر من دون جرها باللبان (١) من هذا الشلال حتى الان ، وربما إستحال عليها المرور أيضاً بواسطة جرها . ولم يخطر ببال أحد أن يمر ليلا بتلك الجهات خوفاً وحذراً من الإصطدام بالأحجار والصخور المغمورة تحت الماء . ولكن الحضرة الخديوية التى هى منبع الكرم قد يسرت هذا الأمر العسير وجعلت المرور والعبور أمراً ميسوراً بفضل ما أغدقته على النوتيه والملاحين من العطايا السنية الوفيرة . وحفزهم بكرمه على بذل جهودهم وقواهم وثباتهم التام . فقاموا بعملهم خير قيام من إستعمال المدرة (٢) وجر اللبان وتحريك المجاديف فى كثير من الجهات ونشر الأشرعة . وهذا دليل على فضل الله عليه يؤيد همته الفائقة وموفقيته الحقيقية . وفى الحقيقة أن ما شوهد من الملاحين المصريين فى هذا الصدد ، ومن السرعة والجرأة ليدل دلالة قاطعة على تفوقهم العظيم على أمثالهم من الملاحين الآخرين . وخلاصة القول فأن الركب الكريم قد وصل إلى دنقلة (٣) وبسط بساط الإقامة فيها يومين فى إنتظار مقدم المسافرين . وفى اليوم السادس والعشرين من شعبان (٤) طوى بساط الإقامة وغادر دنقلة فوصل فى ٢٧ منه (٥) إلى ناحية أمبكول (٦) . وأتصل بسمع ولى النعم أن الوصول إلى الخرطوم فى مدة يسيرة متعذر وممتنع الحصول لسبب أعوجاج مجرى النيل ، وأن بالإمكان الوصول اليها من الطريق البرى خلال سبعة أو ثمانية من الأيام .فأمر سموه بالإقامة فى أمبكول ثلاثة أيام لإعداد المطايا وتجهيز لوازم السفر. وأصدر أوامره إلى المختصين بمتابعة السفر وسوق المراكب إلى مرسى الخرطوم . وقام فى آخر شعبان(٧) إلى العقبة(٨) ، وهى المرحلة الأولى . فرأى سموه فى الصحراء الرملية الواسعة بعض الأشجار المندرسة التي تحجرت

---

(١) يعنى جرها بالحبال .

(٢) المدرة قضيب يستعمله الملاح لدفع المركب حين يكون الماء ضحلا .
والمدرأ ما يدفع به . قاموس العامية ، ص ٧٣٣ .

(٣) المقصود مدينة دنقلا .

(٤) الموافق ١٤ نوفمبر ١٨٣٨ .

(٥) الموافق ١٥ نوفمبر ١٨٣٨ .

(٦) المقصود قرية أم بكول . هذا وقد أخطأ شكرى بتسمية هذه القرية « أمبيكل » . رحلة محمد على ، ص ٥٠ .

(٧) الموافق ١٧ نوفمبر ١٨٣٨ .

(٨) يبدو أن العقبة كانت مكاناً فى صحراء بيوضة تنزل فيه القوافل .

بمرور العصور والدهور . وأخذ ولى النعم يطوى البيد ويقطع العقبات والمنازل ليـــلا ونهاراً حتى حط ركابه السعيد فى جبل رويان فى صباح اليوم الخامس من رمضان (١) . فأستقبله فيها محمد مدين (٢) أصغر أخوة سلطان دارفور الذى كان قد هرب قبل سنتين من ظلم أخوه وجوره ، وأعتصم بحكومة ولى النعم . فقدم من كردفان إلى الخرطـــوم ومنها إلى الجبل المذكور ، وأنار بصره بكحل تراب وأقدام الحضرة الخديوية . ونظراً لأنه أخذإلى الخرطوم فأمر أن يدون جريدة حاله(٣).فأخذ يروى أن ملك دارفور (٤)رجل مغرور واقع تحت تأثير الوهم ، وفى سبيل إستقرار ملكه يبتعد مراحل كثيرة عن الحق والعدالة . وأستطرد من هذا إلى قتل أخـاً له ، وأنه يسرف أوقاته فى إهراق(٥) دماء الأقارب . كما أنه أوقعه فى الخوف وجعله أسير الأسف مما حفزه إلى إختيار طريق الأخذ بالثأر أسوة بما فعله عمه الملك تيمة (٦) الذى هاجر إلى كردفان خوفاً على حياته مــن شروره . وأقام فيها فى ظل المراحم السنية . وأنه يستظهر الجناب العالى للأخذ بثأره من أخيه وأما هذا الشاب فقد حصل على قدر من القراءة والكتابة ، وأن لديه الإستعداد للتشرف بشرف المدينة بسبب صغر سنه .وفضلا عن هذا فأن الملك الذى يشكو منه يتاخم

---

(١) الموافق ٢٢ نوفمبر ١٨٣٨ .

(٢) المقصود محمد أبو مدين أخ السلطان محمد الفضل (١٢١٥ - ١٢٥٤/ ١٧٨٧-١٨٣٩) الذى كرهــه وزاحمه على الملك . وفى عام ١٨٣٦ فر أبو مدين ملتجئ لحكومة محمد على ، وأخذ يهون على الباشـــا غزو دارفور . وقد ظل لاجئاً فى كردفان إلى أن توفى .
نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، ص ٤٦٢ .
هذا وقد تقدم الحكمدار خورشيد باشا بخطة لمحمد على إقترح فيها إنتهاز وجود أبو مدين لغزو دارفور ، وتعيينه حاكماً رمزياً عليها لفترة قصيرة تتدخل بعدها القوات التركية — المصرية لعزله مع تخصيص معاش له . غير أن محمد على أمر خورشيد أن لا يدخل نفسه فى هذه التجربة إلا بعد الإنتهاء من مهمة التنقيب عن المعادن التى أوكلت له . ونظراً لنقل خورشيد من الحكمدارية سنة ١٨٣٨ تأخر غزو دارفور مرة أخرى Hill: *op cit*, p. 30 -31.

(٣) المقصود شرح ظلامته .

(٤) المقصود السلطان محمد الفضل الذى توفى سنة ١٨٣٩ ، وخلفه إبنه السلطان محمد حسين ١٢٥٤ - ١٢٩٠/ ١٨٣٩-١٨٧٤ .

(٥) يقصد إهدار

(٦) تيمة هو عم السلطان محمد الفضل ومنافسه فى الحكم . وقد هرب إلى كردفان قبل سنة ١٨٣٦ مستعيناً بحكومة محمد على ضد إبن أخيه .

حدود مديرية كردفان . وهو بسبب رعونته وخشونته قابل الإحسان بالإساءة عندما أوفد الجناب العالى فى سنة ١٢٤١هـ (١) بعثة مكونة من نحو عشرين شخصاً مع أحمد بك الجداوى (٢) — من قدماء الكبراء المصريين— نصفهم من أتباع الدائرة الخديوية ونصفهم من أتباع البك المذكور . وأرسلهم إلى هذا الملك مع الكثير من الهدايا القيمة بغرض توسيع طرق التجارة ، وليطمئن كل تاجر على ماله فى الطرق والمعابر . فسد باب العدل ونظر فى المرآة بعين الإستكبار ، وظن فى نفسه قوة وجبروتاً . فتجاسر على القبض على البك المذكور وأعتقله هو ورفقاءه وأتباعه . وقد وصل إلى الإسماع أن ثمانية عشر منهم تسربلوا بالأكفان حتى يومنا هذا . كما أن بقاء البك حياً إلى اليوم وهو فى حال الذل لما يلقى الأسى والحزن فى قلوب المصريين المحبين للخير (٣) . ولن يغربن عن البال أن كل واحد قد نقش على صحيفة صدره أن الأمور مرهونة بأوقاتها . وبناء على ذلك قال له الجناب العالى : « إن رغبتى متجهة إلى أجلاسك مكان أخياك » . فأحيى فى هذا الملتجىء ميت الأمل وأكتفى فى الوقت الحاضر بالإنعام عليه بعرفية (٤) مزركشة بأسلاك الذهب، وسيف مذهب ليزين هامته ، ومنطقة بعلامات علو المنزلة ورفعة القدر المعروفة بين ملوك ممالك السودان . ولما خطى بهذا الشرف العظيم التمس السماح له بالعودة إلى كردفان ليقيم فيها ناعم البال بفضل المرتب المقرر له ، وليعدد فيها مناقب الخديوى ويسبح بحمده .

---

(١) الموافق ١٨٢٥ .

(٢) أخطأ هل فى زعمه بأن أحمد بك الجداوى كان « ممثل محمد على فى بلاط سلطان دارفور »

Hill: *op cil*, p. 30.

(٣) وردت عدد من الأخطاء فى ترجمة شكرى للجزء الخاص بدارفور فى هذا التقرير . فهو قد زعم أن تيمة قد كان سلطاناً على مملكة « قريبة جداً من دارفور » وأن أبو مدين قد التجأ اليه هناك بينما لم يكن تيمة سلطاناً على أى مملكة آنذاك. بل أنه وأبو مدين لجأ لمحمد على ليساعدهما ضد سلطان دارفور محمد الفضل . وأخطأ شكرى مرة أخرى عندما زعم أن تيمة قد أرسل وفداً إلى سلطان دارفور بقوله : « واراد الملك تيمة أن يسود السلام بينه وبين السلطان فأرسل اليه أحد شيوخه مع عشرين من الأتباع يحملون الهدايا الثمينة . وأراد الملك تيمة أن لا يزيد نصيب سلطان سنار من هذه الهدايا على نصفها بينما يذهب النصف الآخر إلى الجناب العالى . ولكن الجشع والغرور جعلا سلطان دارفور يغتصب جميع الهدايا لنفسه . وفضلا عن ذلك فقد جرؤ على إحتباس البعثة فى بلاده ثم قتل ثمانية عشر من الأتباع وسجن الشيخ نفسه» . رحلة محمد على ص ٥٠ . ونلاحظ الخطأ فى مضمون هذه الفقرة إذ أن محمد على وليس تيمة هو الذى أرسل هذا الوفد . وبالإضافة لذلك فهناك إضافات فى هذه الفقرة لم ترد فى التقرير الرسمى .

(٤) تعنى طاقية .

فسمح له بالعودة مطيباً مكرماً إلى كردفان .

ونظراً لوجود حضـرة « صاحب العطوفة » أحمد باشا (١) ـ أكفـأ الميرميرانات المصرية فى وادى مدنه (٢) فأنه حضر منهـا وتشرف بتقبيل الأذيال الخديوية . وحظى بالتعطفات الكريمة ، ونال التصريح من ولى النعم ليتقدم الموكب مسرعاً ويبقى فـى الروسيرس (٣) فى إنتظار جنابه العالى . فسافر إلى جهة واد مدنى فى أواسط رمضان .

ومدينة الخرطوم فيما تقدم من الزمان عبارة عن عدد قليل من المساكن البسـيطة المصنوعة من القش والحطب على شكل خيمة . إلا أن حضرة صاحب العطوفة حكمدارها السابق (٤) أحبها لإعتدال هوائها ، فبنى فيها قصراً ومسجداً ، وأنشأ فيها بساتين ، وطرح فيها الحدائق ، وشجع الأهلين والآخرين اليها فى سبيل عمرانها . فوصلت والحالة هذه بفضل تشجيعه إلى هذه الدرجة من العمران.فأصبحت المدينة تشمل ٤٠٠ـ٥٠٠ منزل(٥) وبها ثكنة ومستشفى وحدائق كبيرة . وأمكن تناول الفواكه الطازجة مثـل العنب (٦) والتين (٧) وغيرها فى الذهاب والإياب . وقطعت الذهبيات المرسـلة من أمبكـول المسافة التى قطعت براً فى ستة أيام ونصف فى ثلاثين يوماً بحراً . فوصلت إلى الخرطوم فى آخر رمضان (٨) . وكان ولى النعم مضطراً إلى إنتظار ورودها ، فأقام هذه المدة ولكنه أصيب بالملل . ولذلك نزل فى الذهبيات مع حاشيته قبيل الغروب . وأقلع الركب إلى الجهة المقصودة. وعندما وصل الركب إلى المكان المسمى سروه (٩) الذى هو رأس القم

---

(١) يقصد أحمد باشا أبوودان حكمدار السودان ١٨٣٨ - ١٨٤٣ .

(٢) يقصد مدينة ود مدنى .

(٣) يعنى مدينة الروصيرص الحالية . ومن الروصيرص رافق أبوودان محمد على فى رحلته إلى فازوغلى .

(٤) يقصد خورشيد باشا الذى تولى حكمدارية السودان خلال الفترة ١٨٢٦ - ١٨٣٨ .

(٥) أخطأ شكرى مرة أخرى إذ ذكر فى ترجمته أن عدد تلك المنازل آنذاك « حوالى الأربعة أو الخمسـة آلاف منزل . » رحلة محمد على ، ص ٥١

(٦) المعروف أن العنب لا يزرع بالسودان . ولعله قصد بذلك شجر الأنزوم والحميض الشبيه بشجر العنب والمنتشر فى تلك المناطـق .

(٧) يقصد التين الشوكى الذى ينبت فى تلك المناطق

(٨) الموافق ١٧ ديسمبر ١٨٣٨ .

(٩) المقصود قرية سريو الحالية الواقعة جنوبى سنجة وشمالى أبو حجار . وغالبية سكانها الآن من الفلاته .

جاء الملك يوسف بادى (١) وحظى بشرف تقبيل الأعتاب الكريمة . والتمس من جنابه التكرم بمنح مرتب أبيه المتوفى اليه . فشمله بالرعاية الكريمة ، وأسبغ عليه التعطفات العليه ، وأمر بالإنعام عليه بمرتب والده القديم .

وأظهر رجال الحاشية الخديوية رغبة فى الصيد والقنص أثناء الطريق فأذن لهم مولانا. فأخذوا يصطادون كلما وقع عليه نظرهم ، ويقدمون الصيد إلى الأعتاب البهية. وكان مولانا يفحص كل صيد يعرض عليه خصوصاً الطيور . وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من يسعده الحظ فى الصيد . وأخذوا يتسابقون إلى الإستزادة من العطف والتوجيهات العليـة . وكان ميلهم إلى الصيد تسلية عظيمة لهم أثناء الطريق حتى نسوا متاعب السفر . فمروا من بلدة واد مدنى التى تحوى نحو مائتين أو ثلاثمائة من المنازل وثكنة كبيرة تستوعب آلايا من الجنود ، ومستشفى ، وشونة ، وسوقاً عظيماً تفتح ثلاثة شهور فى العام . ومروا أيضاً من سواحل سنار وسـروه (٢) وملحقاتهما بمنتهى الفرح والسرور والغبطة والحبور . وشاهدوا عدداً عظيماً من من يفوق الوصف والتقدير من الكركى (٣) والأوز والطيور الصحراوية إعتباراً من الخرطوم حتى الروصيرص (٤). ووصل الركب إلى الروصيرص فى شهر شوال (٥) . ولما جاء قاضى كردفان ومفتيها والسلطان تيمة عم ملك دارفور ، أنعم عليهم ولى النعم بالخلع الخاصة ، فلبسوها فى حضرته البهية . وأعلى قدرهم بهذا الإنعام السامى . وأقام فيها ولى النعم خمسة عشر يوماً

---

(١) هو إبن السلطان بادى السادس بن طبل آخر سلاطين الفونج (١٨٠٣ - ١٨٢١) الذى خرج من سنار عندما قرب الجيش التركى - المصرى الغـازى منها ، وسلم لقائده إسماعيل بن محمد على مقدماً له أربعة رءوس من جياد الحبشة . ومكافأة له على هذه الطاعة ، كساه إسماعيل كسوة فاخرة ، ورتب له مرتباً من الدراهـم والحبـوب .
شـقير : جغرافية وتاريخ السودان ، ص ٤٩٩ .

(٢) لعله يقصد قرية سيرو الحالية الواقعة شمالى الدمازين على الشاطىء الغربى . هذا وقد ورد فى إحصاء عام ١٨٨٣ عن أعداد جنود الحاميات المصرية على النيل الأزرق أنه يوجـد بحامية سيرو « ٩٠٠ عساكر شايقية ». مكى شبيكة : السودان والثورة المهدية ، ج ٢، الخرطوم ١٩٧٩ ، ص ١٨ ، نقلا عن رسالة بعث بها وكيل الحكمدارية فـى الخرطوم إلى القاهرة بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٨٨٣ .

(٣) يقصد الطائر المعروف فى السودان بأسم أبو الكركى .

(٤) لم تتضمن ترجمة شكرى كل المعلومات التى وردت منذ بداية هذه الفقرة وحتى هنا .

(٥) الموافق ديسمبر ١٨٣٨ - ينايـر ١٨٣٩ .

وأمر بصيد الحيوان الظريف المسمى زرافة (١) . وتنازل حفظه الله بأكل القليل من لحمه من باب التجربة . ورأى أن طعمه يشبه لذة طعم العجل . ووصل من خلال أيام إقامته المراكب المشحونة بالمواد المعدنية ، كما وصل خسرو أفندى الترجمان الثانى ، ومهندس المعدن ، والمترجم المكلف بالترجمة من الفرنسية إلى العربية ، وعشرة من التلاميذ . فتحرك الركاب العالى يوم ٢٥ شوال (٢) وبات ليلة فى كل من فرسند (٣) وجلوله (٤) وعقبات (٥) . ثم وصل إلى جبل فيروغلى (٦) القائم على مسيرة ٢١ يوماً من الخرطوم فى وقت الضحى من يوم ٢٨ شوال المكرم (٧) . وضربت فيه الخيام الخضراء الشبيه بالزمرد . وشرع فى الحال فى بناء قصر خاص للذات الخديوية ، وأنشأ ثكنة ومستشفى ومخازن للذخائر بجوار هذا القصر .

وسكان الممالك الإسلامية على مذهب الإمام مالك . وطوائف العبيد ليس لهم مذهب خاص ، بل يتبعون كل مذهب . ويمكن تقسيمهم جميعاً إلى ثلاثة أقسام : مدنيون (٨)

---

(١) يبدو أن محمد على قد كان معجباً بهذا الحيوان – الزرافة – قبل أن يراه إذ أنه قد أمر كلا من عثمان بك سر عسكر سنار و كردفان (١٨٢٥ – ١٨٢٦) وخليفته محو بك (١٨٢٦) بالعمل على إرسال زرافتين اليه فى مصر . فهو قد وجه محو بك قائلا : « بما أن الإيصار بأرسال الزراف كان بناء على فكرة فلا داعى لإرسال أحدهما وحدها . فعليك أن تغرى الشخص الذى يقوم بتربية الزرافة الموجودة وتنبه عليه بأن يعنى بتربيتها إلى أن توجد زرافة أخرى . ولما صارت هذه الأعمال اليكم يجب أن توصوا بزرافة أخرى حتى إذا عثر عليها بلطفه تعالى بادروا بأرسالهما معاً » . دفتر رقم ٢٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٤٠ .

(٢) الموافق ١١ يناير ١٨٣٩ .

(٣) لا يوجد مكان بهذا الإسم الآن .

(٤) لعل المقصود بذلك قرية بن جلولو الواقعة فى غرب النيل الأزرق جنوب غرب بكورى

(٥) لعل المقصود قرية عقبى أو أقبى الحالية الواقعة فى شرق النيل الأزرق حوالى خمسة وعشرين كيلو شمال شرق قرية ود الماحى .

(٦) المقصود فازوغلى

(٧) المواق ١٤ يناير ١٨٣٩ .

(٨) لعل المقصود بالمدنيين هنا السودانيون الذين وفدوا من شمال السودان بغرض التجارة (الجلابة) وأستقروا بمرور الزمن فى تلك المناطق . ويعرف هؤلاء حالياً بأسم « الحضريون » بل أن هناك الآن قرية تسمى الحضور التى تقع شمالى بكورى .

وبلويون (١) وجبليون (٢) . فالجبليون منهم كالأنعام لا يفقهون شيئاً عن أحوال العالم . وهم قوم متشردون يسكنون الصحراء والبراري ويشربون المريسة والبلبلي (٣) أي البوظة (٤) وعصير العنب (٥) . وإذا لم يجدوها يأكلون قشر الشجر (٦) وعلى الرغم من ذلك فأن أجسامهم الدهنية قوية ، ويأتزرون بمنطقة من الجلد العفن . وكل حياتهم عبارة عن جهل وكسل ، ومشاغلهم مقرونة إلى البيع والشراء في بني نوعهم . ومن يملك منهم سريراً يسمى العنقريب ، أو يستطيع أكل الحبال المأخوذة من الجلد (٧) كلما جاع ، فهو الغني المتشرف بالشرف المفرق بين الأرض والسماء . ومع ذلك فأنهم بسبب إعتدادهم بدعوى الشهامة يمتنعون عن التسلط والتعدي ليلا . ولكن ما إبتلوا به من عدم الأمنية والعداوة يمنعهم من الإلتفات إلى الحراثة والزراعة ، وجعل ميولهم منحصرة في الغارة على سكان السواحل ونهب محصولهم (٨) . فعد المظلومون تشريف ولي النعم فرصة وغنيمة وشرعوا في رد الناهبين ، وأخذوا يصيحون ويولولون . وأتفقت كلمة مشائخهم ورؤسائهم على أخذ الثأر والإنتقام من المغيرين . ولما ذهب الباشا المشار اليه (٩) إلى جهات جبل طاق (١٠) لإسداء النصح اليهم وإرشادهم إلى طرق حسن المعيشة والمؤانسة ، خافت

---

(١) تفد مجموعات من السودانيين العرب بماشيتهم إلى تلك المناطق في فصل الصيف بحثاعن المرعى ويرحلون منها منذ منتصف مايو إلى أن يصلوا في يوليو إلى جهات كوستي على النيل الأبيض حيث يقضون فصل الخريف هناك . ولعل المقصود من « البدويين » في هذا التقرير هذه المجموعات من الرعاة . وقد قابلت عدداً من هؤلاء خلال رحلتي الميدانية . مثلا في قرية « خرطوم بالليل » بالقرب من قيسان وفي قرية أم درفه .

(٢) أنظر هامش رقم ١ ، ص ١٨ .

(٣) المقصود أم بلبل . وهو نوع جيد من المريسة يقدم لعلية القوم .

(٤) البوظة إسم آخر للمريسة .

(٥) لا يزرع العنب في هذه المنطقة. ولعل التقرير قد خلط بين شجر الأنزوم والحميض المشابه لشجر العنب. ويستخرج منهما عصيراً (أفاده الشيخ محمد عوض يوسف) .

(٦) يقصد عروق الشجر . وقد أخبرني الشيخ محمد عوض يوسف أن فئآت من الجبلاويين يأكلونها حتى يومنا هذا ، ويصنعون منها ملاحاً يسمى « ملاح القنا ». بل وأن الشيخ محمد قد أكلها بنفسه في بعض أوقات الشدة .

(٧) يبدو أن المقصود « بالحبال المأخوذه من الجلد » الشرموط . والشرموط قطعة من اللحم تقطع في شرائح طويلة لتجفف . ومنه ملاح الشرموط . قاموس العامية ، ص ٤٠٠

(٨) ظلت هذه الفكرة المنحازة عن أهالي السودان سائدة آنذاك عند المستعمرين الأتراك — المصريين وغيرهم . ونلاحظ أن هذا الجزء الذي يسخر من أهالي السودان ويتحدث عن بدائيتهم ناقص مبتور في ترجمة شكري . أنظر : رحلة محمد علي ، ص ٥٢ .

(٩) المقصود أحمد باشا أبوودان .

(١٠) المقصود جبل طيقو الحالي الواقع جنوب شرق جبال الأنقسنا بالقرب من باو عاصمة جبال الأنقسنا

طائفة العبيد وإعتراها الوهم . فأخذت تستعد للدفاع بالقوة . وأتضح من جرى الأمور أن الأمر سيقضى الإشتباك معها فى معارك عديدة ومجاريات شديدة تسيل فيها الدماء . ولما كان سفك الدماء مخالف لرأى الجناب العالى من كل الوجوه ، ولذلك أثر الباشا إجتناب الحرب على الإشتباك معهم فى حرب ضروس . فأمر بسحب الجنود وإعادتهم . ولكن الجنود سرت فيهم الإحتجاج على أمر العودة وثبتوا فى قواعدهم محتجين بأنهم قطعوا مسافات شاسعة ، ورأوا بأعينهم ميل الأشقياء إلى العدوان ، ومبادرتهم إلى مباراتهم بالحرب . وقالوا : « أبعد هذا يجوز لنا الإنسحاب » ؟ وبعد هذا الإحتجاج ، صرح لبكباشي واحد للقيام بأمر المحاربة . فبدأت المعركة وهم على جبل رقريق (١) من توابع الجبل المذكور . وأغتنم أبقار عديدة وأسر نحو خمسمائة منهم رجالا وصبياناً ونساء . وتمكن من كسر أنوف نخوتهم. وبعد أن فهموا مساوىء السلب والنهب وإقتنعوا بقبحها، تحركت شموس الرحمة وظهرت بوادر الشفقة فصدر العفو عن جرائمهم السابقة، وأطلق أساراهم (٢) ودوابهم . والقى فى روعهم فوائد السلوك فى طريق الإنسانية . وكذلك أنعم عليهم مدة أسرهم بالمأكولات والمشروبات . وعند إنصرافهم وعودتهم أحسن عليهم بالمأكولات الكثيرة ، فطابت نفوسهم وطارت فرحاً . كما أنعم بالخلع على خمسة من مشائخهم . ولما إتصل أن عدداً من العبيد من سكان الجبال فى جهة كردفان قد وقعوا فى الأسر – كما هى عادتهم القديمة – صدر الأمر بأن يسكنوا فى سواحل البحر الأبيض(٣) إن كان هذا فى الإمكان . وأن يعرضوا شكواهم إلى الحكمدار كلما تنازعوا فيما بينهم ، وأن يتولى حاكم البلدة الفصل فى الدعوى وفقاً للقوانين الشرعية والحكومية . ويعلم أن هذا فرضاً عليه . وإلا يخلى سبيل جميع المدنيين والبدويين والجبليين بصفاء البال والأنس.

وجاءت فى مكاتبات الحكمدار المشار اليه (٤) الواردة فيما تقدم أنه وردت اليه هدية من سلطان الحبش. فكتب كتاباً إلى السلطان المذكور، أرسله مع أحد الأمناء(٥).

---

(١) المقصود جبل رقاريق الحالى أحد سلسلة جبال فازوغلى . ورقاريق قبيلة تسكن تلك المنطقة .

(٢) يقصد أسراهم .

(٣) يقصد النيل الأبيض . هذا وقد أخطأ شكرى بأن ذكر فى ترجمته أن الأمر قد صدر بأنشاء مستعمره من أولئك الأسرى « على شاطىء النيل الأزرق » . رحلة محمد على ، ص ٥٢ .

(٤) يقصد الحكمدار أحمد باشا أبوودان

(٥) ذكر شكرى أن أباودان أرسل إلى الحبشة « وفدا فيه عدد من الرسل » رحلة محمد على ، ص ٥٣ . إلا أن الترجمة الرسمية للتقرير تشير هنا أن أباودان أرسل شخصاً واحداً فقط .

وأعـد (بصحبته) (١) هدية نفيسة تليق بشـرف مصر . وكان وصول هذا الخـبر مصادفاً لوقت إعتزام الجناب العالى السياحة . فأمر سموه أعداد هدايا نفيسة وإحضارها حتى إذا ما وصل الموكب السعيد إلى الجهات العليا أرسلت إلى الحبش بصحبة سـعادة المعاون رستم بك من أقدم الموظفين المصريين الموجود فى ركاب الخديوى. فلما روى هذا إلى المشائخ الذين تشرفوا بشرف لثم العتبات الكريمة فى الخرطوم آمنوا وصدقوا. ولكنهم تلعثموا فى الجواب، وأخذوا يتبادلون النظرات مبتسمين. وعندئذ قال الضابط فسيان(٢)، من أوائل الضباط الذين التحقوا بخدمة مصر والمشغول الآن فى جهـة الخرطوم بالتجارة : « مولاى إن الأحباش قوم كالحمير ، وهم لذلك إذا عوملوا على هذا الوجه يخشى أن تقع حادثة مثل حادثة دارفور ، لأنهم محرومون من الإعتبار والمدنية » . وكان قوله هذا مما جعل مولانا يصرف النظر فى الوقت الحاضر عن إرسال الهدية إلى الحبشة إلى أن يعود الأشخاص الذين كان أوفدهم حضرة الباشا المشار اليه بهديتـه ، وإلى أن يزول ما كان عالقاً بين الطرفين من الكدر، ويتجلى أطوار وحركات السلطان المذكورة الأخيرة. وبما أن الأنباء قد وردت بأن البعثة المرسلة بالهدية قد وصلت إلى بلدة القلابات ، التى هى المركز التجارى للتجارة الحبشية — السودانية والداخلة فى حدود حكومة مولانا الخديوى ملجـأ العدل ، وأنها ستعود قريباً إلى جهة قزنقور (٣) ، أدلى مولانا ولى النعم بتعليماته وتنبيهاته المفصلة إلى حضرة الحكمدار المذكور . وتتلخص فى أنه متى ما عادت البعثة أن يسلم الهديـة الخديوية المجهزة إلى أحد الضباط ويرسلها للسلطان . وأن يعمل على أخذ التعهدات الكفيلة بتأمين الطرق التجارية حتى يضمن للتجار السير ذهاباً وإياباً بالطمأنينة الكاملة والسلامة التامة من كل الوجوه . وأن يحض الأهالى المقيمين فى أقسام دنقله وبربر على زراعـة النيلة كيفما شاءوا . ويشجعهم على المتاجرة فيها بالبيع والشراء . وأن يعطيهم ما يطلبونه من الالات اللازمة المتخلفة فى فابريقات النيلة التى كانت تستعمل لخدمة الحكومـة ثـم تركت فى الوقـت الحاضر . وأن يشمـر عن ساعد الجد والإهتمام ، وأن

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة فى الأصل . ولكن من السياق يبدو أنها تعنى « بصحبته » .

(٢) بدلا من " الضابط فسيان " زعم شكرى أن المتحدث كان " الشيخ فيصل " الذى " عاد حديثاً إلى الخرطوم وأتخذها مكاناً لإقامته " .
المصدر السابق ، ص ٥٣

(٣) لعل المقصود هنا دنكر الواقعة بالقرب من القلا بات

يسعى سعياً حثيثاً فى كل ما يعود على البلاد بالعمران بأى حال كان (١) .

و كان أن أوفد ثلاثة من المهندسين (٢) ليسيروا حتى خور الذهب الواقع فى مواجهة قزنقورة (٣) . ثم يعودوا بعد أن يشاهدوا أثر التبر وليعرضوا ما يشاهدونه فقام هؤلاء المهندسون بما إنتدبوا له ، وجابوا المنطقة حتى دخلوا إلى ساحل النيل عند نقطة النهاية وعادوا . وأخبروا أنهم رأوا التبر و عياره كعيار التبر الذى شوهد فى الجهات العليا. وعندئذ تحرك الركاب الميمون من قزنقورة فى اليوم الثامن من الإقامة - أى فى يوم ١٧ ذو القعدة (٤) — ووصل إلى الجهة المذكورة بعد مسيرة خمس ساعات من أقرب الطرق . فنصبت لهم الخيام ، وأمر حفظه الله — تأييداً للأوامر الجليلة الصادرة للحكمدار المذكور — أن يطلق إسم محمد على على المكان المذكور ليزداد عمراناً وليذكر على ألسنة الناس دواماً . ولأجل أن يصبح جديراً بحمل هذا الإسم الكريم ويكون أكبر وأعظم بلاد السودان (٥) ، أمر بأنشاء الحدائق والبساتين ، وأحاطته الجميع بسور ، وإسكان من يرغب فى سكناها والإقامة فيها . و كان لهذا اللطف والكرم تأثير عجيب على مشائخ السود المحيطين بالإمور ، فأحنوا رؤسهم أكباراً . وعرضوا على مسامع الحضرة العلية أنهم سيجمعون من الأطراف والأكناف أربع وعشرين ألف بيت (٦) بالطوع والرضى لإستخدامهم فى خدمة المعدن . والتمسوا أن يصرف لكل عامل تسعة أرباع من الذرة شهرياً لأن الذهب والفضة عندهم كالتراب الأسود سواء بسواء . ولكن ولما كانت

---

(١) لم يذكر شكرى فى ترجمته كل هذه الأوامر المفصلة المتعلقة بالعلاقات السودانية — الحبشية والزراعة التى أمر محمد على الحكمدار أباودان بالعمل على تنفيذها . أنظر : رحلة محمد على ، ص ٥٣ .

(٢) هم المهندسون الفرنسيون دارنو ولا مبرت وليفبره الذين سبقت الإشارة اليهم .
أنظر هامش رقم ٥ ، ص ٢٥ .

(٣) المقصود جبل كشنكرو الحالى . وتسكن هناك قبيلة " الكشارة " المسماه على هذا الجبل .

(٤) الموافق ١ فبراير سنة ١٨٣٩ :

(٥) ذكر شكرى فى ترجمته أن محمد على أراد لمدينة محمد على أن " تصبح عاصمة السودان " . رحلة محمد على ، ص ٥٣ . إلا أن ذلك لم يرد مطلقاً فى التقرير الرسمى ولا فى أى مرجع آخر .
هذا وقد ذكر هل أن مدينة محمد على قد أنشئت فى المكان الذى يلتقى فيه النيل الازرق مع خور عدى .
وأضاف أن الباشا قد أخبر فيما بعد قناصل الدول الأوربية أنه سيلتجىء لهذه المدينة إذا ما أجبره أعداؤه على مغادرة مصر . Hill: *op cit.*, p. 68.

(٦) يقصد أسرة .

المصلحة المذكورة مصلحة لها أهميتها وخطرها وتعد من الأمور الجسيمة — كما يشهد بذلك من له دراية بها — فقد رؤى أن الواجب يقضى بتشغيل المعدن بالالات الميكانيكية وفقاً لتقارير المهندسين ، وما أدلوا به من التعريف . وأستقر الأمر بأن يكتفى فى الوقت الحاضر بأحضار ١٥٠٠ بيت من جبل فيزوغلى وإسكانهم فى مدينة محمد على . وأن يوعدوا بمكافأتهم بصرف كسوه لكل منهم سنوياً علاوة على المقدار المقرر من الذرة على أن يدرج التقرير الذى وضعه مهندسو المعدن فى جريدة الوقائع فى المستقبل فى الأيام(١).

وصحارى الممالك السودانية وجبالها مشحونة بالوحوش العجيبة والطيور الغريبة والأشجار الكثيرة فى كل مكان منها . ولا تخلو جهة من الأشجار ذات الثمر مما تنبتها الطبيعة مثل العنب (٢) والتين (٣) . وقد عشعشت بين أغصانها أنواع عديدة من الطيور المغردة حتى إذا ما شرعت فى التغريد بعثت النشاط والحبور فى قلوب الغادين والرائحين فضلا عن تلك الخضرة التى كست الصحارى والقفار وكل نوع منها يجلو مراءة البصر والأرض ذات قابلية عظيمة للزراعة . وتنتج الأرض محصولا وافراً فتعطى الحبة الواحدة خمسين أو ستين حبة مما يدل على قوتها . والقوم يستعملون فى دنقلة وما جاورها آلات خفيفة مثل المساحى (٤) والفؤوس . ولكن هذه الالات يستغنى عنها فى الجهات العليا فيعمدون إلى الأرض فى موسم الزرع فيخرجونها بقطعة مدببة من الحطب (٥) ويلقون حبة الذرة أو بذرة القطن فتؤتى ثمرها بعد حين . ويرى أرباب الزراعة بعين الحيرة أن شجيرات القطن التى تزيد فى الطول عن قامة الإنسان هناك يزيد محصولها عن القطن الناتج من القطن المنزرع فى مصر بالالات المختلفة والنفقات الباهظة (٦) . ومن المجزوم به أن

---

(١) الملاحظ أن هذا التقرير لم يتضمن نتائج الأبحاث التى قام بها المهندسون آنذاك للتنقيب عن الذهب . غير أنه أشار إلى أن مهندسى المعدن وضعو اتقريراً حول هذا الأمر سينشر " فى جريدة الوقائع فى المستقبل من الأيام " . ولا أدرى أن نشر هذا التقرير أم لا إذ أننى لم أجد فى دار الكتب بالقاهرة كل مجلدات مجلة الوقائع الخاصة بالفترة ما بين ١٢٥٠-١٢٥٥/١٨٣٤ - ١٨٣٩ .

(٢) أنظر هامش رقم ٧ ، ص ٣٢

(٣) أنظر هامش رقم ٨ ، ص٣٢

(٤) يبدو أن " المساحى " هى آلات إستخدمت لمسح الأرض .

(٥) يقصد السلوكه . وفيها الآن نوعان : أم خابور والجرايه

(٦) بدأت قبل ثلاث سنين زراعة القطن فى مشروع التكامل جنوبى الرصيرص وفى مزرعة الدولة فى أقدى . وينتج الفدان فى كل منهما حوالى ستة قناطير .

كل ما يزرع هناك ينتج ، كما أن أصحاب الزراعة ينالون المحصول بدون كلفة أو عناء كثيرون مستغرقون فى غياهب الجهل والكسل ، لأنهم لم يوفقوا إلى سيد رحيم يوجه اليهم أنظارهم ويشملهم برعايته منذ أن خلقهم الله إلى العصر الحاضر . فبقوا على الفطرة كما يشهد بذلك الواقفون على أحوال الناس . ولكن الله قد قيض لأولئك الهائمين فى وادى الحرمان مولانا ولى النعم العادل الرحيم ، فجاءهم كالخضر من لدن الرب المجيد . و كان لمقدمه السعيد فيضاً وبركة ، ونفخ روح الحياة فى سكان البلاد الذين كانوا كالأموات فعادوا إلى الحياة أنضر وأقوى مما كانوا . وأقر بذلك العلماء والمشائخ ، ولمس ذلك كل فرد من أفراد الشعب . ولما مسحوا وجوهم فى تراب أقدام الحضرة الكريمة كان لسان حالهم يقول : « أى قميص لا يصلح للعريان ؟». ولما وضعوا على هاماتهم الخلع الفاخرة كل بحسب درجته ومقامه ، وجه الخديو الجناب العالى كلامه إلى المشائخ قائلا لهم : « لا يخفى على ذوى العقول أن سكان أقسام المعمورة كانوا مثلكم فى العصور التى خلت محرومون من الرفاهية. ولكن سكان كل قطعة نالوا الشرف الإنسانى وحظوا بالرفاهية والنعم فحباهم الله بالطاقة الصمدانية . كل هذا نالوه عن طريق دليل إتخذوه لهم . فهأنذا دليلكم فسيروا على بركة الله ، وأقبلوا نصائحى وتمسكوا بالأسباب التى سأشرحها لكم . وإنى آمل من فضل الله الخلاص لكم من أحوالكم الموجبة للملال . وأن بلادكم واسعة مترامية الأطراف وأرضكم خصبة ، ولديكم الناس والدواب والأخشاب بدون حساب . وهذه الدنيا مقسمة إلى خمس قارات ، وليس فيها إلا قارة أفريقيا سكانها هم الذين حرموا من لذة المأكولات والمشروبات ، ومن فوائد التجارة وأرباحها . بينما مصر التى تبلغ مساحتها حوالى ٣٦٠ ميلا وعرضها ٢٤٠ ميلا تقريباً نالت الثروة والعزة من وراء كثرة الزراعة كما لا يخفى . وإذا صرفنا النظر عن مشارق السودان ومغاربها وأكتفينا بجزيرة سنار لرأينا أنها من جهة السعة والفسحة أكبر من مساحة مصر عشر أضعاف . والمشهور أن الإنسان إذا توانى ولم يسع لن ينال المقصود . ثم أستطرد من هذه المقدمات إلى شرح فضائل الزراعة وتفضيل شئون التجارة . وبعد أن أنتهى الجناب العالى من حديثه هموا بالإجابة وقالوا :

« يا محسن من لطفك أحسنت الينا

تالله لقد آثرك الله علينا

نحن فى الحقيقة أجهل من فى الأرض وأحط من فى درجات الطول والعرض (١) » .
وأخذوا يعرضون رغبتهم فى مشاهدة المحروسة ، فقال لهم ولى النعم : « تعالوا ولكن المشاهدة والتقدير مع العلم بالقراءة والكتابة شىء ، وبدونهما شىء آخر . فأن كنتم توفدون أبناءكم فأنى ألحقهم بالمدارس الكثيرة التى وفقنى الله سبحانه وتعالى فى إنشائها لتعليم أبناء الأمة وتثقيفهم ، وأدفع لهم نفقات مأكلهم وملبسهم . وبذلك ينعم أبناؤكم بنصيب وافر من العلم والأدب فى هذه المدارس . ثم أعيدهم بعد سنوات قليلة إلى أوطانهم معززين مكرمين . وأكون بهذا العمل قد خدمت عائلاتكم خدمة عظيمة من جهة ، وخلدت أسمى مقروناً بالفخار إلى يوم القيامة من جهة أخرى (٢) » . فكان لهذا الخطاب السامى أثراً عظيماً فى نفوسهم المكروبة مما جعلهم يذرفون دموع الفرح من تأثرهم بهذه المجاملات . وسارعوا إلى الوعد بأرسال أبنائهم . وأنبرى عبد القادر أغا شيخ الجزيرة (٣) وأظهر إخلاصه وعبوديته بقوله « ليس لى أبناء ، ومع ذلك سأرسل إبن أخى » !

وكانت أساسات المبانى اللازمة لأشغال المعدن قد وضعت، وترك عشرون مهندساً كما أشرنا إلى ذلك فيما سلف ذكره . وكان هؤلاء المهندسون يتقاضون مرتبات

---

(١) لم يرد رد المشائخ هذا على خطاب الباشا فيهم فى ترجمة شكرى .
أنظر : رحلة محمد على ، ص ٥٥ .

(٢) نحن نعلم أن محمد على لم يفتح مدرسة نظامية واحدة فى السودان . إلا أن التقرير يشير هنا أنه قد عرض خلال زيارته للسودان على مشائخ البلاد إرسال أبنائهم ليتعلموا فى مصر مجاناً، وأنهم قدوافقوا على ذلك .
وقد وصل إلى القاهرة عقب عودة محمد على اليها من السودان ستة " من أبناء وجهاء " السودان . وقد أمر محمد على بالحاقهم بالمدرسة التجهيزية ليتعلموا القراءة والكتابة أولا ، ثم يدرسوا بعد ذلك علم الزراعة .
هذاوقد وجه الباشا "بلزوم العناية بهم وتميزهم على غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين وأن يخصص لهم خادم يقوم بما يلزم لهم . ولو أن لكل عشرة من تلاميذ المدرسة خادم . وألا يفرق بينهم بل يكونوا معاً . "
عبد العزيز أمين عبد المجيد ، تاريخ التربية فى السودان ، ج ٢ (القاهرة ١٩٤٩) ، ص ١٦ نقلا عن رسالة من ديوان المعاونة إلى مدير المدارس ، دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة جهادية ، وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخر ١٢٥٥ .

(٣) يقصد عبد القادر ود الزين شيخ مشائخ الجزيرة ، ومن أهم المشائخ السودانيين الذين تعاونوا مع حكومة محمد على . فقد رقاه محو بك وكساه كسوة فاخرة بينما قلده الحكمدار خورشيد المشيخة على البلاد من حجر العسل إلى جبال الفونج . شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، ص ٥١٥ - ١٦ .

كبيرة ، ولكن شاءت رغبـة الجناب العالى أن يزيدهم ثروة وغنى . فأنعم على كـل مهندس منهم مائه فدان أبعادية من الأراضى الخالية ، على أن يتولوا تدريب الشعب على أصول الزراعة والفلاحة . وأمر حفظه الله بأن يعطوا كل ما يطلبونه بطريق السلفة . وأن يتدرب المهندس شخصياً بقدر الإمكان على الزراعة وأصول الفلاحة . وأمر بأخذ نفرين من كل شيخ والحاقهما بمعية مهندس توطئة لتعلم الزراعة الفنية وحذق أصولها أولا ، ثم قيامهم بعد ذلك بزراعة الأرض وحصدها على حسابهم الخاص . وأمر الباشا أيضاً بتشجيع الشعب على تذوق منافع الزراعة وحذق أصولها حتى يقبلوا على زراعة النيلة والقطـن وقصب السكر . وألا يؤخذ مال من أى فود كان فى خلال السنوات التى ستحدد بحسب ما يقرر فى مصر ويبلغ اليهم . وأن يكتفى بعد إنقضاء السنوات التى سنقرر بأخذ العشر فقط . وأن يبذل جهده فى تطييب قلوب الزراع وحمايتهم على وجه أتم . ثم قال الباشا : « يا بنى (١) أرنى همتك وإن ظهرت لى أنك قادر على تنفيذ وصاياى المبسوطة بأذن الله فلا شك أن عائلتك ستكون فى المرتبة الأولى بين العائلات المصرية . وأن فى نيتى أن أحضر فى العام القادم — إن لم يطرأ مانع — لزيارة هذه البلاد ، اشد أزرك ومعاونتك فى تشجيع الرعية وحضهـم » . وكان لإظهار الجناب العالى ما فى ضميره وقع جميل لدى الباشا الذى شمله ولى النعم بهذه التعطفات المتوالية التى ضاعفت قدره ، وأعلت منزلتـه وإعتباره .

ولما كانت الشلالات مانعة لسوق الفنجات إلى ما يلى مدينة محمد على ، فـأن الجناب العالى وصل إلى فيزوغلى فى الثامنة عشر من ذى القعدة (٢) . وأمر بأرسـال العطايا والدواب إلى بربر . وفى الصباح أجريت مراسيم الوداع ، فأصطف العلمـاء والمشائخ وغيرهم من العظماء الذين شملهم ولى النعم بعواطفه السامية وإحترامه ومرحمته خلال مدة إقامته . ووقفوا فى الطريق الذى سيسلكه سموه وكان لسان حالهم يقول :

وخيالك لا تغيب عـن فـؤادى
لو كان بيننـا ألـف وادى

وكان تأثرهم بادياً على محياهم من كثرة شوقهم وفرط تعلقهم . وكان يدل على أنهم

(١) يخاطب الباشا هنا الحكمدار أحمد باشا أبو ودان .
(٢) الموافق ٢ فبراير سنة ١٨٣٩ .

ميالون إلى قبول الرعوية مع أولادهم وعيالهم. ثم عاد جنابه العالى على الفنجات ، ولكن لقلة الماء وكثرة الأحجار الصغيرة فأن الفنجات الصغيرة كانت تمر وكأنها محمولة على الأيدى إلى أن وصل الموكب إلى الخرطوم فى ٢٧ ذى القعدة (١) ، وأقام فيها ثلاثة أيام . وكان عند مروره لمشاهدة الزرع وأعمال الحرث كان يوجه الخطاب إلى المشائخ — كما أسلفنا — مشجعاً إياهم . وأثمر هذا التشجيع فشوهد ميل الأهالى إلى الزراعة والفلاحة . ومن ذلك الضابط فسيان السابق ذكره قال عندما كان المشائخ ماثلين فى الحضرة الخديوية : «سأقوم أنا أيضاً بأنشاء عشرة من السواقى » . فعرض الآن على المسامع الخديوية أنه جهز أماكنها وأنشأ أثنين منها (٢) . ودار الحديث حول الذهبيات التى ستقصد إلى البحر الأبيض ، فأمر ولى النعم بتعيين سليمان كاشف باشيوغاً (٣) لإقامته ثمة منذ أربعة عشر سنة وله إطلاع ومعرفة نوعاً ما بجهات البحر الأبيض ، وأن يصحبه فى سفره إبراهيم الفرنسى من التجار . وخصص له مرتباً شهرياً قدره ألف قرش ، كما أمر أن يصرف للجميع مؤنة سنة . ولما كان سكان البحر الأبيض سواسية بطائفة العبيد فى إستعمال الدرقة والطرانيوس (٤) بدلا عن السنان والسيف ، وهم (يتقون) (٥) الجدال بها ، ولكنهم لم تصل أسماعهم أصوات المدافع والبنادق ويجهلون خبرهما. ولذلك سمح الجناب العالى بضم ذهبيتين على الذهبيات المخصصة ، وإركاب ٥٠٠ جندى فيها بعد موسم الفيضان للمعاونة فى إكتشاف المنطقة إكتشافاً جيداً . والإستعانة بهم فى تقوية أسباب المحافظة ، إذ لا يبعد أن يعترض طريقهم بعض الأشرار . وشرح للبعثة مأموريتها وأن تسير فى هذه الأيام على أن يكون بدء السير إلى أقصى ما يمكن السير عليه عقب

(١) الموافق ١١ فبراير سنة ١٨٣٩ .

(٢) نلاحظ أن ترجمة شكرى للتقرير مبتورة بصفة خاصة عند تعرضها لذلك الجزء من التقرير الذى يتحدث عن رحلة العودة من فازوغلى إلى القاهرة . فهو لم يشمل مثلا هذا الجزء من حديث الباشا مع المشائخ خلال الثلاثة أيام التى قضاها فى الخرطوم فى طريق عودته .

(٣) الباشيوغ رتبة عسكرية .

وقد عهد محمد على إلى سليمان كاشف مهمة الإشراف على القوات العسكرية التى صاحبت البعثة التى أرسلت للكشف عن منابع النيل الأبيض . نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل الأبيض ، ص ٣٤ .

(٤) المقصود " الطرنباش " أو السفروق . وهو سلاح يقذفه صاحبه عند الصيد أو الدفاع عن النفس .

(٥) لم أستطع قراءة هذه الكلمة ولكن من السياق يبدو أنها " يتقون "

هطول الأمطار (١) .

وبلدة الخرطوم — كما أسلفنا — أصبحت مركزاً تجارياً فى قليل من الوقت . وقد تجمع فيها كثير من ملك الأفرنج والروم والقبط . فتقدموا إلى الأعتاب ملتمسين التصريح لهم بأنشاء كنيسة لهم ، ولكن رؤىء أن إجتماعهم فى كنيسة واحدة أمر بعيد الحصول لتفرق مللهم . ولكنهم قالوا أنهم سيتعبدون ويجرون طقوسهم فى معبد واحد وهم على أتم ما يكونوا صفاء ومودة. فأعطى لهم ؟(٢) بقصد إعمار المملكة (٣) . ولما كان السياح وتجار العتمور يكونوا دائماً ودوابهم معرضين للتعب دائماً فى مكان واحد، فأنه لاجدال فى أنه إذا وضع لهم نظام — كما حصل فى أمر الزراعة — قاموا بتوريد محصولاتهم إلى مصر . ولذلك قال مولانا ولى النعم للمسيو لامبر (٤) أن نيته العالية متجه إلى إنشاء سكة حديدية فى الطريق المذكور، وأنه معتزم تنفيذ هذه الفكرة فى القريب العاجل (٥) . وأوفد جنابة المسيو لامبر إلى كردفان ليقرر إن كان من الممكن شق ترعة من النيل إلى كردفان توطئة لتشغيل وإدارة معدن الحديد على الوجه المطلوب (٦) .

ولما كان من دأب جنابه العالى حفظه الله فى كل الأوقات أن يشمل بعين رعايته من فى ركابه من المحاسيب ورجال الحاشية صغاراً وكباراً ، فأنه شمل فى هذا السفر الطويل من تشرفوا بالخدمة فى ركابه السعيد بعنايته ، وأغرقهم فى بحار توجيهاته وتعطفاته. وكان دائم العطف عليهم فى كل مكان نزلوا به. وكان يأمر اعزه الله بأن يأتوا بالتتابع إلى مجلسه الشريف ليتشرفوا بمجالسته السنية ليحظوا بالشرف والإفتخار وليعلى قدرهم . وكان من عادته العلية أن يفكر دائماً فى تزييد ثروة كل المتشبثين بأذيال

---

(١) لم تتضمن ترجمة شكرى هذا الجزء الذى يتحدث فيه التقرير عن البعثة المكلفة بالكشف عن منابع النيل وعن المقاومة التى توقع محمد على أن تواجهها من الأهالى .

هذا وقد كلف محمد على أخيراً البكباشى المصرى سليم قبودان للكشف عن منابع النيل الأبيض . وقد بدأت أولى رحلاته الثلاث فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ . المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٢) لم أستطع قراءة هذه الكلمة . ولعلها تعنى أذناً أو قطعة أرض .

(٣) أنظر ص ١٧ .

(٤) يقصد المهندس الفرنسي لامبرت Lambert الذى صحب الباشا فى رحلته .

(٥) هذا يعنى أن محمد على قد فكر فى إنشاء خط سكة حديد عبر صحراء العتمور من أبى حمد إلى حلفا . غير أن هذا كان مجرد حلم إذ لم تتوفر لحكومة الباشا آنذاك المال والخبرة الفنية لتنفيذ هذا المشروع .

(٦) وهذا حلم آخر كان من المستحيل على الباشا تنفيذه .

أبهته ليزدادوا قوة وثروة. وكان لاينفك عن ذكر محاسن الدولة المصرية ومناقبها فيقول: إن فى زيادة إيراد مصر رفعتى وعلو شأنى ، وفى إزدهار مصر قوتى وثروتى. وهذا غنى عن التعريف. إلا أن أراضى السودان أخصب وأوفر محصولا وأكثر سكاناً ودواباً وأشجاراً. فأن كانت هذه الجهود تبذل فى عمرانها على الوجه الذى أومله فلاشك أن قارة إفريقيا بعد مائة سنة تضارع أمريقا (١) ، بل تكون ثانيتها. وأستطرد من هذا الكلام إلى القول بأنه على الرغم من وصوله الحادية والسبعين فى عمره ، فأنه يرتاد هذه الأقاليم فى سفره فى غاية من الصحة وسلامة الجسم كأنه شاب فى الخامسة والعشرين. وكانت كلماته التى من هذا القبيل تولد السرور والممنونية فى قلوب عبيده الشاكرين لإحسانه (٢)

وفى غرة ذى الحجة (٣) تحرك ركابه السامى من الخرطوم (٤) ، وقرر المرور من الشلالات على الرغم من أن الموسم هو موسم إنخفاض ماء النيل ، وإنتظار ورود المواشى فى أبى حمد. وبينما كان الركب السعيد يمر من الشلالات ، سمعت إستغاثة من فنجة القنصل المذكور (٥) وصوتاً يردد : « فنجتنا غرقت ». وكنا وقتئذ نستخرج الماء من فنجتنا بواسطة خمس جرادل. وبينما كنا سائرين فى طريقنا أخذ جنابه العالى يلاطفنا سائلا : كم من الجرادل تشتغلون ؟ وبعد أن سرنا مدة رست الفنجات على الشاطىء

---

(١) المقصود أمريكا.

(٢) لم ترد كل هذه الفقرة من " ولما كان من دأب جنابه العالى " وحتى " الشاكرين لإحسانه " فى ترجمه شكرى للتقرير.

(٣) الموافق ١٥ فبراير ١٨٣٩. زعم شكرى أن ركب محمد على غادر الخرطوم فى " آخر ذى القعدة " ١٢٥٤ الموافق ١٤ فبراير ١٨٣٩.

(٤) ذكر الرحالة بالم أن المسؤولين قد إتفقوا مع زعماء قبيلة الكبابيش لترحيل صمغ الحكومة من كردفان إلى دنقلا مقابل أجر معلوم على الجمل الواحد. إلا أنهم نقضوا هذا الإتفاق بدفع ربع المبلغ المتفق عليه فقط. وحتى ذلك لم يدفع لهم نقداً إذ أنهم أجبروا على أخذ بعض المنسوجات القطنية المصنوعة فى دنقلا بدلا من النقد. وأستطرد بالم زاعماً أن محمد على قد عمل خلال رحلته إلى السودان على إزالة هذا الظلم بأن إستدعى الشيخ صالح شيخ الكبابيش لمقابلته فى الخرطوم. وقد حاول فى هذه المقابلة إستمالته بكل الطرق ، بل وأنه وعده بأن يزيد فوراً الأجر الذى دفع للكبابيش مقابل حمل كل جمل من خمسة وأربعين إلى ثمانين قرشاً. Pallme, I: *Travels in Kordofan* (London 1844), p. 138. غير أن هذا التقرير لم يشر مطلقاً إلى هذه المقابلة المزعومة.

(٥) المقصود قنصل اليونان فى مصر – توسيجية – الذى رافق محمد على فى رحلته للسودان.

وسحبت . ثم شرع فى ترميمها بقدر المستطاع . وفى العاشر من ذى الحجة (١) أمكن الوصول إلى أبى حمد ، فأقيم بها أربعة أيام فى إنتظار الماشية . وأراد مولانا السفر من عتمور بربر الأشد من عقبة دنقلة والذى يمتد مسيرة ٩٢ ساعة . وتمكنت ثلاث رؤوس من الخيل المخصص لركوب جنابه العالى من الوصول ، ولكنها وصلت فى حالة أعياء . ولما عرض عليه ذلك قال سموه : أننى باطف الله تعالى فى كامل صحتى وعافيتى ، ولا فرق عندى بين الخيل وغيرها من ذوات الأربع ، وكنت معتاداً على كثرة ركوب الهجن منذ القديم . وأزاء هذه الرغبة الكريمة ، تحرك الموكب العالى من المحل المار ذكره قبل العصر من اليوم الرابع عشر من ذى الحجة (٢) . وأخذ يقطع الفيافى الرملية اللانهائيـــة لها وكأنه الأسد حتى نزل فى وقت الفجر فى اليوم العشرين من الشهر المذكور (٣) فى كرسكو . ثم أستغل الفنجات ، ومر من شلال أصوان (٤) . وكان سموه يسأل عن حالة المديريات أثناء مروره حتى وصل إلى مصر المحروسة بعد أن صرف خمسة أشهر وأربعة أيام فى السياحة (٥) . وكان لوصول ولى النعم رنة فرح وابتهاج لدى محاسبيه المخلصين شعبه الوفى الأمين الذى كان مترقياً تشريفه .

وإننا لندعو الله الذى قدر منازل الشمس والقمر وتنزهت ذاته عن المكان والمقر أن يقدر الذات الخديوية العالية فى مسند العز والإجلال ، وأن يثبت ظله الظليل على مقارف عباده آمين ثم آمين (٦) .

---

(١) الموافق ٢٤ فبراير ١٨٣٩ .
(٢) الموافق ٢٨ فبراير ١٨٣٩ .
(٣) الموافق ٦ مارس ١٨٣٩ .
(٤) المقصود أسـوان .
(٥) وكذلك لم ترد فى ترجمة شكرى كل الجزء من بداية هذه الفقرة وفى « غرة ذى الحجة » وحتى هنـا . والتى وصف فيها التقرير رحلة الباشا من الخرطوم إلى القاهرة .
(٦) ولم يرد أيضاً فى ترجمة شكرى هذا الدعاء فى خاتمة التقرير .

مراجع مختارة

الوثـــائق

مركز أبحاث تاريخ مصر المعاصر ، عليه السودان ، التقرير الرسمى عن رحلة ساكن الجنان مولانا الكبير محمد على إلى السودان ، مترجمة من وثيقة تركية محفوظة فى ملف المتفرقات (دوسيه بدون تاريخ من المحفظة نمرة ١٢٣ — عابدين ، رجب — شوال ١٢٥٤) .

الرحلة الميدانيـــة

للتحقق من المعلومات التى وردت فى التقرير الرسمى الذى صدر عن رحلة محمد على قمت خلال شهر ابريل ١٩٨٠ برحلة ميدانية من الخرطوم متتبعاً بقدر الإمكان الطرق التى سلكها ركب الباشا حتى فازوغلى وخور الذهب .

فقد سافرت برا من الخرطوم مارآبمدنى وسنار وسنجة حتى مدينة الدمازين. ومن الدمازين سافرت فى رحلة طويلة إستغرقت عشرة ساعات إلى أن وصلت مدينة قيسان على الحدود الحبشية السودانية . وعند عودتى إلى الدمازين سافرت إلى الروصيرص . ومنها سرت محازياً للضفة الشرقية للنيل الأزرق إلى أن وصلت إلى فامكة (مدينة محمد على سابقاً) وجبال فازوغلى . وقد إستغرقت هذه الرحلة حوالى سبع ساعات .

وقد توقفت طوال هذه الرحلة فى كل المدن والقرى التى مررت عليها وتحدثت إلى عدد كبير من أهالى تلك المناطق . وبالطبع لا يمكننى أن أذكر أسماءهم كلها . ولكننى أكتفى بالشيخ محمد عوض يوسف — البالغ من العمر ستين عاماً والمقيم حالياً بمدينة قيسان — الذى أفادنى فائدة كبيرة .

رسالة غير منشـــورة

سعاد عبد العزيز أحمد : التعليم غير الحكومى فى شمال السودان ١٨٩٨ — ١٩٥٦) (رســالة ماجستير ، الخرطوم ١٩٧٩)

مراجع باللغـــة العربية

انجلوسا ماركو ، تعريب طه فوزى : رحـــله محمد على الى السودان (القاهره ١٩٤١)

حسن أحمد إبراهيم : محمد على فى السودان (الخرطوم ١٩٧٢)

مـــكى شبيكة : السودان عبر القرون (القاهرة ١٩٦٤)
السودان فى قرن (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧)
السودان والثوره المهدية ، ج ٢ (الخرطوم ١٩٧٩)

محمد فؤاد شكرى :

وعبد المقصود العنانى : بناء دولة محمد على (القاهرة ١٩٤٨)

وســيد محمد خليل :

محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ (القاهرة ١٩٥٨) مصر والسيادة على السودان (القاهرة ١٩٤٦) . « صفحة من تاريخ السودان الحديث ، رحلة محمد على باشا إلى فاروغلى ١٨٣٨ — ١٨٣٩ ونشر جرنال الرحلة » ، كلية الآداب ، العدد الثامن ، المجلد الثانى ، ١٩٤٦ ، ص ٢٧—٥٨

نســيم مقـــار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل الأبيض (القاهرة ١٩٦٠)

نعـــوم شقـــير : جغرافية وتاريخ السودان (الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٢)

عبدالعزيز أمين عبدالمجيد: تاريخ التربية فى السودان ، ج ٢ (القاهره ١٩٤٩)

عـــون الشريف قاسم : قاموس اللهجة العامية فى السودان (الخرطوم ١٩٧٢)

رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية (الطبعـــة الثانية ، القاهرة ١٩١٢)

مراجع باللغـــة الإنجليزية

Dunn, Stanley : " Notes on the Mineral Deposits of the Anglo- Egyptian Sudan ", the *Anglo-Egyptian Geological Survey Bulletion*, I, 1911

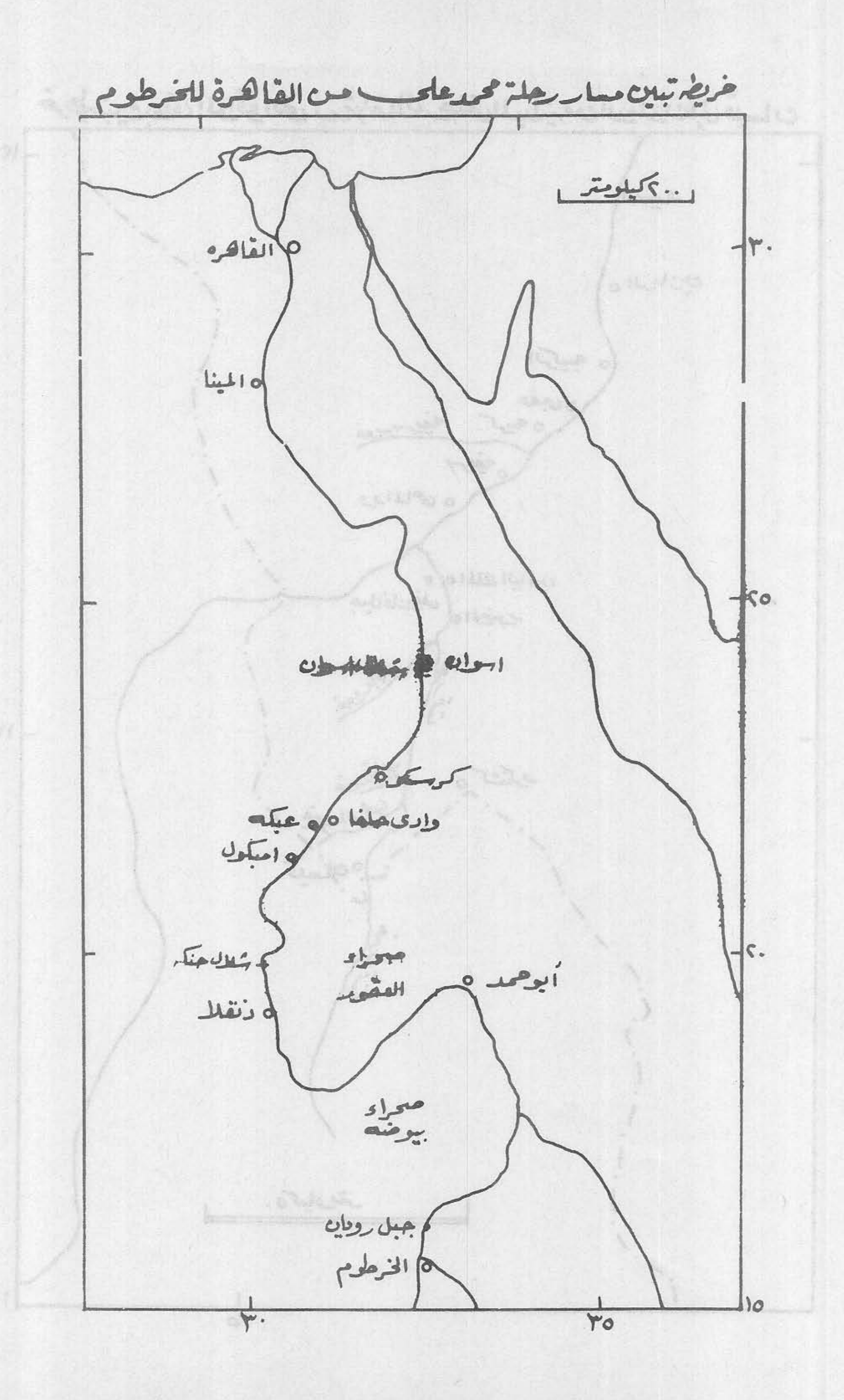
Hill, Richard : *Egypt in the Sudan* (London 1959)

A Biographical Dictionary of the Sudan (2 nd, ed, London 1976

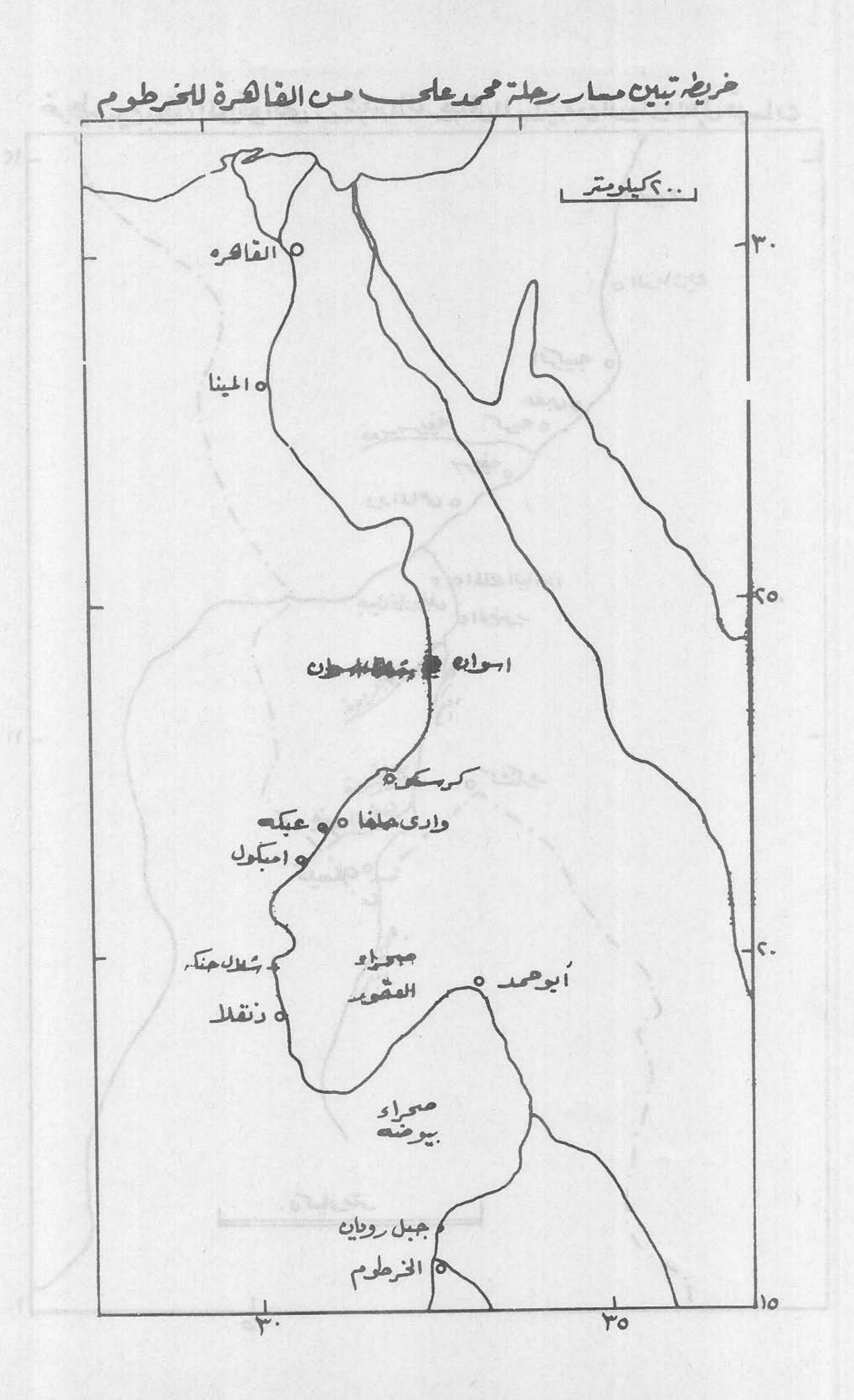
Llewellyn, Arthur : *Report on a Mining Concession in the Egyptian Sudan* (London 1903)

Pallme, I : *Travels in Kordofan* (London 1844)

Tuchmann Charles (ed) : *Notes on the Mineral Wealth of the Sudan form Khartoum to Abyssinia, Extracts from Bergrath Russegger's Travels in the Sudan* (*London* 1903)



خريطة تبين مسار رحلة محمد على من القاهرة للخرطوم



خريطة تبين مسار رحلة محمد على من القاهرة للخرطوم
٢٠٠ كيلومتر
القاهره
المينا
اسوان
كرسكو
وادى حلفا
عبكه
احبكول
شلال حنك
صحراء العتمور
أبو حمد
دنقلا
صحراء بيوضه
جبل روپان
الخرطوم
٣٠
٢٥
٢٠
١٥
٣٠
٣٥

خريطة تبين بعض المناطق التي زرتها خلال رحلتي الميدانية بين الدمازين وفازوغلي

خريطة تبين بعض المناطق التي زرتها خلال رحلتي الميدانية بين الدمازين وفازوغلي